﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾



بالقرآن نهتدي

دراسة تتناول ما يجب أن يعرفه المسلم
عن القرآن الكريم، وأوجه الانتفاع به

إعداد الأستاذ الدكتور
طلعت محمد عفيفي سالم
عميد اكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الأسبق
ووزير الأوقاف السابق



﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

بالقرآن نهتدي

دراسة تتناول ما يجب أن يعرفه المسلم عن القرآن الكريم ، وأوجه الانتفاع به

إعداد

الأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفى سالم

عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الأسبق

ووزير الأوقاف السابق

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، شهادة نحيا بها، ونموت عليها، ونلقى الله بها.

وبعد.

١- فإن الله تعالى حين خلق الخلق لم يتركهم سدى، ولم يدعهم دون هدى، ولكنه -سبحانه- وفَّر لهم أسباب الحياة التي تحفظ لهم أجسادهم من مأكل أو مشرب أو غير ذلك.

يقول رب العزة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٢- ولأن حاجة الإنسان لا تقتصر على ما يصلح بدنه، ويحقق لذَّاته المادية فحسب، فإن الله -سبحانه- وفَّر له أسباب الهداية، ووضع بين يديه من المناهج والتعاليم ما يرقى بإنسانيته، ويسمو بروحه، فأرسل له الرسل، وأنزل الكتب، ودلَّه على أسباب الهداية والفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول رب العزة: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الحديد: ٢٥].

٣- ثم شاء الله تعالى بحكمته وإرادته أن تكون هناك خاتمة لهذه الكوكبة من الرسل، ولهذه الرسائل الربانية من الصحف والكتب، فكانت بعثة الحبيب محمد ﷺ، والذي بعثه الله رحمة للعالمين، وختامًا لسائر المرسلين، وأنزل عليه القرآن الكريم، كلمة الله الأخيرة إلى الناس، وأودع فيه من التوجيهات والآيات ما جعله مصدِّقًا لما قبله من الكتب ومهيمنًا عليها.

يقول رب العزة: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ [المائدة: ٤٨].

٤- وقد شاء الله تعالى أن يلحق رسول الله ﷺ بربه، بعد أن بلَّغ رسالته وأدَّى أمانته، وبقي القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله له، وسيظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها منارة تهدي الحائرين، وتنير سبيل السالكين.

يقول الله تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

٥- وقد ربط الله -تعالى- في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته بين عزة الأمة وعلو شأنها وبين تمسكها بهذا القرآن الكريم.

يقول رب العزة: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠]. ومن بين معاني الذكر في هذا الموضع: الرفعة والشرف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».[1]

ولو دققنا النظر في حال نبينا ﷺ وحال الصالحين في كل عصر ومصر لوجدنا أن القاسم المشترك بين هؤلاء جميعًا هو تمسكهم بهذا القرآن الكريم، وعكوفهم على قراءته وتدبره، والسعي إلى الالتزام بتعاليمه وهدايته، وأنه بقدر قرب الأمة وتمسكها بهذا القرآن تكون عزتها وسؤددها، ويوم تُعْرِضُ عنه يكون تخلفها وتحكُّم الآخرين فيها.

٦- وفي محاولة لاستجلاء هذه الحقائق، وتحفيز همة المسلم للانتفاع بهذا القرآن الكريم على الوجه المطلوب أقدِّم هذه الدراسة -مستعينًا بالله تعالى- تحت عنوان «**بالقرآن نهتدي**».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب صلاة المسافرين وقصرها- حديث رقم (٢٦٩ / ٨١٧).

وقد قسمت هذه الدراسة إلى فصلين، وهما:

الفصل الأول: ما يجب أن يعرفه المسلم عن القرآن الكريم.

الفصل الثاني: أوجه الانتفاع بالقرآن الكريم، والتي تشمل «القراءة – الاستماع – الحفظ – التحفيظ – التدبر – العمل».

وقد سبق لي وأن قدَّمتُ بحثًا حول «حفظ القرآن وتحفيظه»، وآخر حول «أخلاق حملة القرآن»، وسوف أستفيد بهما في هذه الدراسة، وأضيف –بإذن الله تعالى– الكثير مما يتعلق بالقرآن الكريم تأصيلًا وتطبيقًا.

سائلًا الله تعالى دوام التوفيق والسداد، وأن يجعل القرآن حجة لنا لا علينا، وشفيعًا لنا يوم نلقاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

أ.د/ طلعت محمد عفيفي سالم

الفصل الأول

ما يجب أن يعرفه المسلم عن القرآن الكريم

ويشتمل على المباحث التالية:

١- منزلة القرآن الكريم عند الله تعالى.

٢- بيان قوة القرآن الكريم ومجال عملها.

٣- دور القرآن الكريم في تغيير العرب والعالم من حولهم.

٤- القرآن في نظر خصوم الإسلام.

٥- الربط بين الآيات الكونية والآيات القرآنية.

٦- القرآن كتاب هداية.

٧- منهج التعامل مع القرآن الكريم بين سلف الأمة الصالح والأجيال المعاصرة.

٨- الشمول في توجيهات القرآن الكريم، وضرورة تفاعل المسلم معها.

٩- الإعجاز في حفظ الله للقرآن من أن تناله أيدي العابثين.

١٠- منزلة أهل القرآن والبركات التي تحل عليهم بسببه.

١١- أخلاق أهل القرآن.

١٢- عقوبة هجر القرآن، وذمُّ المعرضين عنه.

١٣- قالوا عن القرآن.

١٤- القرآن الكريم في المرتبة الأولى من المعارف والعلوم.

(١) منزلة القرآن الكريم عند الله تعالى

١- التعرف على منزلة القرآن الكريم عند الله تعالى في أول ما يجب أن يعرفه المسلم، فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وقد عرَّف العلماء القرآن الكريم بأنه: «كلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، المتعَبَّدُ بتلاوته، والمتحدَّى بأقصر سورة منه، والمنقول إلينا تواترًا ... إلخ».

وفي هذا التعريف وغيره يتضح لدينا أن من أهم خصائص القرآن أنه كلام الله تعالى.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

٢- وفي أكثر من موضع يتم التأكيد على أن هذا القرآن نزل من عند الله تعالى، وذلك كقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ ﴾ [الشعراء: ١٩٢]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والتأكيد كذلك على أن النبي ﷺ تلقى هذا القرآن عن الله، وكان دوره التبليغ به دون زيادة منه أو نقصان عنه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾ [النمل: ٦].

وحين طلب المشركون منه أن يأتي بقرآن غير هذا أو يبدله علَّمه الله تعالى أن يبين لهم أنه مبلِّغٌ عن الله ما يوحى به إليه، وليس له في الأمر شيء.

يقول رب العزة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥-١٦].

٣- ولكون القرآن كلام الله تعالى فإنه يأخذ صفة المتكلم به سبحانه، فهو موصوف بأنه القرآن الكريم، والقرآن العظيم، والقرآن المجيد، والكتاب العزيز، والكتاب المبين، والذكر الحكيم، والذكر المبارك، والصحف المطهرة، وأحسن القصص، وأحسن الحديث، والفرقان، والنور، والهدى، والموعظة، والشفاء، والروح، والبرهان، والحق... إلخ هذه الأسماء التي تعبر عن جلال وعظمة هذا القرآن، والتي أوصلها بعض العلماء إلى أكثر من مائة اسم، وخصَّها بعض العلماء بالتأليف والشرح، سواء ضمن الحديث عن القرآن، أو في مؤلفات خاصة وضعت لأجل هذا فقط.

وللدلالة على فضل القرآن الكريم -فوق ما تقدم- أن الله تعالى أطلعنا على منزلته العليا في السماء، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤]. وأنه سبحانه حين أراد أن ينزله إلى الأرض اختار له أفضل

الملائكة، وهو أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختار له أفضل الرسل سيدنا محمد ﷺ، وبأفضل اللغات وهي العربية، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. كما اختار الله لنزوله أفضل الليالي، وهي ليلة القدر، في أفضل الشهور، وهو شهر رمضان، وأودعه في بيت في السماء يُسَمَّى «بيت العزة» [(١)] ونزل منه مفرَّقًا على ثلاث وعشرين سنة ليصنع به أفضل أمة، وهي أمة الإسلام.

وللدلالة أيضا على فضله ما ذكره الله تعالى بشأن القرآن في الملأ الأعلى، فهو كما قال الله تعالى في شأنه: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ١٣-١٦]. وهو: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٨-٧٩]. وهو: ﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. ويستلزم ذلك أن نتعامل نحن مع القرآن بما يفيد تعظيمنا له، فلا يمسه منا إلا طاهر، ويجب أن يُكْتَب بمداد طاهر، وعلى ورق طاهر، ويحفظ في مكان طاهر، ويحرم تدنيسه أو ابتذاله في أي صورة من الصور.

وكون القرآن الكريم بهذه المنزلة عند الله تعالى ينعكس بالتالي على من ارتبط به، وعاش على مناهجه، وأحيا نفسه بتعاليمه، وصار الشغل الشاغل

(١) انظر (تفسير القرآن العظيم) للحافظ ابن كثير (ج ٤ – ص٥٢٩) تفسير سورة القدر – طبعة عيسى الحلبي.

له، وهؤلاء يُسَمَّون بأهل الله، بنصِّ كلام النبي ﷺ، والذي جاء فيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ». (١)

وإنه لشرف –وأي شرف– لأي مسلم أن يرتبط بهذا القرآن، والذي هو كلام الله دون تبديل أو تغيير، ونقله عنه أمين الوحي جبريل، ثم نقله عنه رسول الله ﷺ، ثم صحابته الكرام فَمَن بعدهم، جيلًا إثر جيل، مكتوبًا في السطور، ومحفوظا في الصدور، وبذا يصبح له سند متصل برب العالمين، مرورا بهذه الكوكبة من خيرة عباد الله تعالى.

ويبقى حب الإنسان المسلم لهذا القرآن وتعلقه به هو الدليل العملي على محبته لله، وقد ورد في هذا عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَّ عز وجل، فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَى الْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهَّ عز وجل، فَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللهَّ عز وجل». (٢)

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة –حديث رقم (٢١٥)، وقال عنه البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح.

(٢) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس (ص ٤٠) ابن رجب الحنبلي – طبعة دار الفتح – بدون تاريخ.

وقد ورد أيضًا عنه قوله: «لا يَسألْ أحدُكم عن نفسِه إلاَّ القُرْآنَ، فإن كانَ يُحبُّ القُرْآنَ ويعجبه فهو يُحبُّ اللهَ -سبحانه- ورسولَ الله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله -سبحانه- ورسوله ﷺ». [1]

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ - ص٤٩٦) أبو حامد الغزالي - طبعة دار الشعب.

(٢) بيان قوة القرآن الكريم ومجال عملها

١- أيَّد الله تعالى رسله الكرام بمعجزات تدل على صدقهم، وتُعمِّق الإيمان في نفوس أتباعهم.

وقد كانت هذه المعجزات مؤيِّدة لما في أيديهم من مناهج وكتب أوحى الله بها إليهم، لهداية أقوامهم بما تحتويه من آيات الله وتوجيهاته، لكنَّ هذه الكتب لم تكن تحمل في طياتها المعجزة، بل كانت المعجزة شيئا، والكتب شيء آخر.

٢- وحين بُعث رسول الله ﷺ، وكان آخر الأنبياء، وكتابه القرآن آخر الكتب اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزته الكبرى هي عين منهجه، لتبقى شاهدة على صدقه ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فكان هذا القرآن الذي تحدَّى الله به الإنس والجنَّ أن يأتوا بمثله أو ببعض منه فعجزوا.

وفي إشارة إلى اختصاص رسول الله ﷺ بهذه الميزة عن باقي الرسل يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (1)

ولا يعني هذا -كما يتصور البعض- أنه ﷺ لم تكن له مع القرآن معجزات حسيَّة، ففي القرآن إشارة إلى معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر وغيرهما، وفي السنة الكثير من تلك المعجزات كانفلاق الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع الذي كان يستند إليه عند خطبته حين تحول عنه إلى المنبر، وتكثير الطعام بين يديه... إلخ، ولكن تبقى معجزة القرآن هي أكبر معجزاته، وأبقاها على مرِّ الدهور والعصور.

٣- وقد أودع الله تعالى في هذا الكتاب الكريم قوَّة لو أنها تسلطت على أشياء مادية لصنعت به العجب العجاب، مما لا يخطر للإنسان على بال.

يقول الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحشر: ٢١]. ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ ﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط محذوف، وتقديره: أي لكان هذا القرآن.

والسرُّ في قوةَّ القرآن الكريم أوجزته الآية الكريمة: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾ [الفرقان: ٦].

---

(١) رواه البخاري – حديث رقم (٤٩٨١)، ورواه مسلم – حديث رقم (٢٣٩ / ١٥٢).

وعليه فإن قوةَّ القرآن الكريم مستمدة من قوةَّ مُنْزِلِهِ –سبحانه– وعلمه وقدرته، وسائر صفاته التي لا نهاية لها.

يقول سهل بن عبد الله التستري ﵁ : «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه.. وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه». [١]

٤- وإذا كان القرآن الكريم بهذه القوة –والتي لم توجَّه إلى ماديات– فما هو إذن مجال عملها، وما مدى تأثيرها فيه؟

إن مجال عمل القرآن هو بناء الإنسان وصناعته على عين الله تعالى، بحيث يصبح إنسانًا ربانيًا في عقيدته وعبادته وسلوكه، وساعيًا في إصلاح نفسه ومجتمعه، وحريصًا على طاعة خالقه ومرضاته.

يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال: «إنه لما قامت دولة القرآن اختفى الرهبان والكهان... إنه ليس بكتاب فحسب، إنه أكثر من ذلك، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم». [٢]

---

(١) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (ص٧) د/ خالد عبد الكريم اللاحم – طبعة أولى سنة ٢٠٠٦ – دار الآفاق للنشر والتوزيع.

(٢) روائع إقبال (ص١٧٢) – أبو الحسن الندوي – طبعة رابعة سنة ١٩٨٣ – نشر مجلس نشريات إسلام – باكستان.

وقوة القرآن الكريم في تعاملها مع الإنسان، وإحداث التغيير المنشود فيه هي معجزة كبرى لهذا القرآن، وهدف أصيل لأجله أنزله الله تعالى، وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

«إن الذي يدخل بإذن الله إلى دائرة تأثير القرآن، فتباشر معجزته كينونته، فمن الطبيعي والتلقائي أن يتغير تغيرًا إيجابيًّا وشاملًا، فيعيد القرآن تشكيله على الوجه الذي يحبه الله ﷻ، فهو كما قال الله عنه: ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ، وكما قال عنه أيضًا: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]. هذه التغيرات تظهر آثارها بعون الله على حركة المرء، فتجده في حالة دائمة على الاستقامة على أمر الله ﷻ، يسعى دوما إلى فعل ما يحبه ربه، وذلك في كل المجالات الفردية والجماعية» (١)

٥- وتعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته ليست فروضًا نظرية، أو فلسفات كلامية، تحلِّق في عالم الخيال، على نحو ما فعل أفلاطون فيما يعرفُ بـ «المدينة الفاضلة» (٢)، ولكنها توجيهات ربانية، صنعت خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، وارتبط تقدمها أو تخلفها بمقدار قربها من هذا القرآن أو بعدها عنه.

---

(١) غربة القرآن (١٣ -١٤) مجدي الهلالي – طبعة سنة ٢٠١٣ – مؤسس (اقرأ).

(٢) المدينة الفاضلة هي أحد أحلام الفيلسوف اليوناني أفلاطون، وهي مدينة تمنى أن يحكمها الفلاسفة، لظنه أن الفلاسفة بحكمتهم سيجعلون كل شيء في هذه المدينة مثاليًّا، وبناءً عليه ستكون فاضلة.

وحتى يتضح المقال بالمثال نسوق في النقطة التالية شواهد عدَّة على هذا الواقع، لعلَّها تسهم في توثيق صلتنا بهذا القرآن، وإعطائه ما يستحق من العناية والاهتمام.

(٣) دور القرآن الكريم في تغيير العرب والعالم من حولهم

١- حين نزل القرآن الكريم في البيئة العربية لم تكن تتميز حينها بأي ميزة كالتي عند الأمم المعاصرة لها مثل الفرس والروم وغيرهما، بل العكس هو الصحيح، حيث كانت العرب قبائل مشتتة، ليس بينها روابط من أي نوع، وشُغْلُهُم هو الحرب والإغارة على بعضهم، وأخلاقهم وعلومهم لا ذكر لها، ولا يمثلون في نظر الأمم الأخرى أي وزن.

وقد أجمل القرآن الكريم ما كانت عليه العرب قبل الإسلام في عبارة موجزة فقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ووصف حالهم كذلك الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين كان في مجلس النجاشي ملك الحبشة، فقال: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف...إلخ.

٢- وحين جاء الإسلام، ونزل القرآن دبَّت الروح في هذه الأمة الضعيفة، فإذا بها بدل أن ترعى الغنم تقود الأمم، وبدل التخلف والعدم تتبوأ أعلى القمم، ويقف أحد قادتها -وهو ربعي بن عامر- في مجلس رستم قائد

الفرس ليقول: «إنَّ الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ومن الملاحظ أن هذا التغير حدث في فترة وجيزة من عمر الزمن، ولم يكن وليد الوسائل والأسباب التي يعرفها البشر، ويستخدمونها في الرقي بالمجتمعات، وعلى رأسها الاهتمام بالتعليم والتربية.

٣- وفي عبارات بليغة يقارن الداعية الإسلامي الأستاذ أبو الحسن الندوي بين ما كان عليه العرب قبل الإسلام، وما صاروا إليه بعده، فيقول: «وقد شرح القرآن الكريم الإسلام والجاهلية في أسلوبه المعجز البليغ، وبيَّن الفارق الهائل العظيم بين هذين العهدين المتمايزين.

«وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهَّ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. والحق الذي لا غبار عليه أنه لا يمكن تصوير للجاهلية والإسلام أبرز وأنطق بالحقيقة من هذا التصوير، ولا يمكن شرح الفوارق بين العهدين وبيان خصائص الفترتين بأوضح وأبلغ من هذا البيان، إن تاريخ الجاهلية والإسلام كله ليس إلا تفسيرًا لهاتين الآيتين، وتفصيلًا لهذا

الإجمال البليغ، وما هي الجاهلية؟ وهي: ﴿ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ [آل عمران: ١٠٣] و﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.

وما هو الإسلام مجملًا؟ هو: ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ و﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾.

ولا يمكن تصوير أرقى إنسان في الجاهلية بأصح ولا أبلغ من هذا التصوير القرآني ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وإذا أردت أن تصور الثورة الإسلامية بل سلسلة الثورات الإسلامية في الحياة البشرية فلا أبلغ ولا أدل على ذلك من تصوير القرآن الكريم:

﴿ فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. (١)

٤- فما هو السر وراء هذا التغير، وهذا الانقلاب الشامل، والذي أنتج أمَّة ذات سيادة، ومجتمعًا يتألق حضارة ورقيًا، وأفرادًا صاروا كالمصابيح في عالم الظلام؟

إن السبب وراء ذلك كله هو القرآن الكريم، وما تحتويه آياته من إعجاز، قلبت الموازين، وأعادت الاعتبار إلى الإنسان، وقامت بصياغته بشكل كامل: عقيدة، وعبادة، وأخلاقًا.

فهذا رسول الله ﷺ يقول الله له: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ويقول له: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ

---

(١) المدخل إلى الدراسات القرآنية (ص٩١) – طبعة أولى سنة ١٩٩٧م – دار الكلمة.

عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ [النساء: ١١٣]. وأمره الله تعالى أن يقول للناس: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ». ومن ثمَّ كانت حياته ﷺ تطبيقًا عمليًّا لما جاء في هذا القرآن، فكان قرآنًا يمشي بين الناس، وهو ما عبَّرت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت للسائل: «ألست تقرأ القرآن؟» قال بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن». (١)

وعلى مستوى المجموع ورد في القرآن الكريم إشارات عدَّة إلى نسبة ما حدث للناس من تغيّرٍ إلى القرآن نفسه.

يقول الله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١].

ويقول سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٥- وقد شعَّ نور القرآن الكريم، فأضاء الكون من حوله، وتأثرت به كثير من الشعوب، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتوارت على استحياء كثير من الفلسفات والمبادئ القديمة أمام عظمة هذا القرآن الكريم وجلاله.

(١) رواه مسلم – حديث رقم (١٣٩ / ٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «الحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان، لذلك بدأت تختفي الآثار الفكرية والنفسية لآداب الفرس، ولفلسفة الروم، لأن القرآن الكريم جاء بجديد، حوَّل الكلام من تجريدات ذهنية نظرية جدلية -كما يفعل الفرس واليونان والرومان- إلى منطق ملاحظة واستقراء، ومنطق وعي الكون واحترامه والتعرف على سننه، ومشروعية التعامل معه لعمارة الأرض وبناء الحضارة». [1]

٦- وإذا كان القرآن الكريم قد أحدث ذلك في صدر دعوة الإسلام فإنه قادر -بإذن الله تعالى- على إحداث ذلك في أي وقت، حين تقبل عليه القلوب بصدق، وتسري عليهم تعاليمه بحق.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

والفعل «يهدي» فعل مضارع يفيد الاستمرار.

ويقول عز من قائل: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤]. وقد سبقت الإشارة إلى أن من معاني الذكر في هذا الموضع الرفعة والشرف، وهو لا يتقيد بزمان أو مكان.

(١) كيف نتعامل مع القرآن (ص٢٨) - طبعة سنة ١٩٩٨ - دار نهضة مصر.

وفي مواضع عدة من كتاب الله تعالى يأمرنا ربنا باتباع القرآن، ويعقِّب على ذلك بقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، «لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، «لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» ... إلخ.

وكلها إشارات لا تخص قومًا بأعينهم، أو بيئة دون سواها.

وتبقى هدايات القرآن الكريم كدواء جُرِّبَ وصحَّ، وما من إنسان أقبل على هذا القرآن بصدق إلا وفاضت عليه أنواره، وحلَّت عليه بركاته، وملأت السعادة قلبه، وأحست بها روحه وأعضاؤه.

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء أحزاننا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

(٤) القرآن الكريم في نظر خصوم الإسلام

١- أحيانًا يغفل الإنسان عن قيمة ما بيده، ويدرك قيمة هذا الشيء خصومُهُ وأعداؤه.

ومع كثرة كلامهم عنه، وتحذير أقوامهم من التأثر به تتجلى له الصورة، وتتضح أمامه الحقيقة.

ويستأنس في هذا المقام بما روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أن رجلًا سأله قائلًا: كيف لي أن أعرف أهل الحق في زمن الفتن؟ فقال الإمام: «انظر إلى أين تتجه سهام الباطل فهي تدلك عليهم». وروي مثل ذلك أيضًا عن الإمام ابن تيمية.

٢- إن القرآن الكريم هو أمضى سلاح استخدمه الرسول ﷺ والدعاة من بعده لمواجهة أعداء الإسلام على اختلاف أشكالهم وألوانهم، وهو ما عبرت عنه الآيات القرآنية ذاتها.

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٢]. أي جاهدهم بالقرآن كما ورد عن ابن عباس، وذكره ابن كثير في تفسيره عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

٣- وقد فهم أعداء الإسلام هذه الحقيقة قديمًا وحديثًا، وعبَّر عن ذلك القرآن الكريم، ونطقت بذلك ألسنتهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ [الحج: ٧٢].

وقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن أقوال المعاصرين في هذا الشأن ما ذكر أن «لاكوست» وزير المستعمرات الفرنسي حين عجز عن فرنسة الجزائر قال: «ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا». [١]

٤- وقد ترتب على هذا الموقف من أعداء الإسلام حربهم الشرسة على هذا القرآن، وبذلهم أقصى الجهد للفصل بين المسلمين وبين التمسك بهذا القرآن.

---

(١) نقلًا عن (خصائص القرآن الكريم) ص٢٣٤ – د/ فهد بن عبد الرحم الرومي.

ومن أقوالهم في هذا الشأن:

- قول المبشر «تاكلي»: «يجب أن نستخدم القرآن -وهو أمضى سلاح في الإسلام- ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تمامًا. يجب أن نُرِيَ هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا». [1]

- قول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على احتلال الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائر ما داموا يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم». [2]

- قول الدكتور «وطسون» أحد قادة التنصير في بلاد المسلمين: «إننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية، ونجد فيه الخطر الداهم، ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير». [3]

وهناك أقوال أخرى غير هذه، لكننا نكتفي بما ذكرنا، مع العلم بأن المسألة تعدَّت مرحلة الأقوال إلى مرحلة الأفعال، فبين كل حين وآخر تطالعنا

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق (ص٢٤٢- ص٢٤٣).

(٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات.

الأخبار عن تصرفات وأعمال يباشرها خصوم الإسلام بهدف الإساءة إلى القرآن وتدنيسه، ومحاولات تحريفه... إلخ.[1]

وكلها محاولات تنم عن حقد دفين لهذا القرآن وأهله، وعجزهم أمام مقاومته وتحديه لهم.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].

وإن أبلغ رد على هذا هو مزيد من التمسك بهذا القرآن، والعمل على نشره وتبليغه للعالمين.

٥- يقول رب العزة: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]. لا ننكر أن من خصوم الإسلام من أنصف القرآن، وشهد بعظمته وهيمنته، ولكنها أصوات خافتة وسط ضجيج الخصوم، والذي أثر سلبا على بعض المنتسبين إلى الإسلام، فساروا في طريق مضاد لتعاليم الإسلام وتوجيهاته، تبعًا لهؤلاء الخصوم، وتأثروا بأقوالهم ومواقفهم.

(١) نفس المصدر السابق.

(٥) الربط بين الآيات الكونية والآيات القرآنية

١- تطلق كلمة «آية» ويراد بها معانٍ عدة، من بينها وأشهرها الآيات الكونية والآيات القرآنية.

والمراد بالآيات الكونية ما نشاهده من حولنا من بديع صنع الله تعالى في خلق الكون والإنسان وغير ذلك، مما يدل على وحدانية الخالق وقدرته سبحانه، وصدق من قال:

وفي كل شيء له آية* تدل على أنه الواحد**

ويقول الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة». [١]

٢- وهناك تشابه كبير بين الآيات المنظورة في الكون والإنسان، وبين الآيات المسطورة في القرآن الكريم، لأن المصدر لكليهما هو الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ يمتلئ القرآن الكريم بالكثير من الحديث عن هذه الآيات الكونية في الأنفس والآفاق، وذلك في حوالي ألف آية من كتاب الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (ج١ – ص٤٣٨).

وبلغ من اهتمام القرآن الكريم بهذه الآيات المبثوثة في الكون أن سميت كثير من سوره بأسماء هذه الآيات، مثل: «الإنسان، الشمس، الليل، الضحى، النجم، القمر، الرعد، النحل، النمل، البقرة، الأنعام...إلخ» كما اشتمل القرآن الكريم في مفتتح كثير من سوره بالقسم بهذه الآيات الكونية والإنسانية للدلالة على جليل قدرها، وعظيم فضلها، ويكفي أن نذكر أن أطول قسم في القرآن الكريم ورد في مفتتح سورة الشمس، حيث أقسم الله تعالى بأحد عشر شيئًا من هذه الآيات الكونية، إضافة إلى سور أخرى افتتحت بالقسم بآيات مثلها أو غيرها.

٣- وفي محاولة لاستجلاء أوجه الشبه بين الآيات الكونية والآيات القرآنية، وما يترتب على ذلك من تبعات ودروس ينبغي أن يستفيد بها دارس القرآن الكريم أسوق هذه الحقائق:

أ) إن الآيات الكونية تمثل قمة التحدي والإعجاز، فلا يستطيع مخلوق مهما عظم قدره أن يخلق شيئًا -ولو ضعيفًا- أو يعدِّل من مسار هذه الآيات ويريد بها غير ما أراد الله.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي حجاج سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام للنمروذ: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وكذلك آيات القرآن الكريم تمثل قمة التحدي والإعجاز لجميع الخلق -إنسهم وجنهم- والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ب) أن الآيات الكونية تتسم بالإتقان والإبداع، فهي دليل الجمال والحسن من جهة، وهي محفوظة بحفظ الله لها، فلا يتخللها عطب أو خلل.

يقول الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣-٤]. وكذلك آيات القرآن الكريم تتسم بالإتقان والضبط، وتخلو من أي خلل أو اضطراب.

يقول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١].

ويقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨]. ويقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]

ويقول أيضًا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

ج)أن هذه الآيات الكونية لم تُخْلَق عبثًا، وإنما لتحقيق هدف والوصول إلى غاية هي الدلالة على الخالق الحق سبحانه وتعالى.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]. ويقول: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ﴾ [ص: ٢٧]. وكذلك آيات القرآن الكريم نزلت من عند الله بالحق، ولإقامة الحق بين الخلق.

يقول الله تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَۗ ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

د) أن الآيات الكونية منذ خلقها الله تعالى تعمل وفق منظومة لا تتخلف، وتؤدي دورها المنوط بها دون خلل أو تراجع.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

وكذلك آيات

القرآن الكريم بالنسبة للإنسان، فالإنسان منذ خلقه الله تعالى هو هو لم يتغير، وآيات الله تعالى تصلحه وتحافظ عليه في أي زمان أو مكان دون أن تتغير أو تتبدل. يقول الله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس: ٦٤]. ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. والفعل يهدي فعل مضارع يفيد الاستمرار.

وأكتفي بهذا القدر من أوجه الشبه بين الآيات الكونية والآيات القرآنية، وإن كان الناظر بمزيد من الاهتمام والعناية سيرى أكثر مما ذكرت.

٤- ولأجل هذا نرى في القرآن الكريم ترابطًا بين هذه الآيات وتلك، سواء في الدعوة إلى الاعتبار والاتعاظ بها، أو في النتائج المترتبة عليها.

وفيما يلي أسوق بعض البراهين والأدلة على هذا الترابط.

أ) الآيات الكونية والإنسانية تساعد على تعميق الإيمان بالله تعالى وتثبيت اليقين في نفس المؤمن.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾ [الجاثية: ٣-٦]. **والآيات في هذا المعنى كثيرة.**

وكذلك آيات القرآن الكريم تسمو بإيمان المؤمن، وتؤكد اليقين والحق في قلبه.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال: ٢]. .

ب) الذين تفاعلوا مع الآيات الكونية، وساقهم ذلك إلى الإقرار بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى وقيوميته مدحهم الله سبحانه وتعالى، وأثنى عليهم، بينما ذم من أعرض عن هذه الآيات دون الانتفاع بها.

يقول الله -سبحانه وتعالى- في معرض المدح: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا

وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

وفي معرض الذم يقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. والشيء نفسه مع آيات القرآن الكريم.

فالله تعالى يمتدح المتفاعلين مع القرآن، والمتأثرين به فيقول: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٥- ويقول في معرض الذم للمعرضين عن آيات القرآن الكريم: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٧-٩].

والخلاصة أن الآيات الكونية المنظورة والآيات القرآنية المسطورة كلها من عند الله تعالى، وقد علَّمَنا ربنا أن نحمده على كل منهما.

فقال في شأن الآيات المنظورة في كونه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ﴾ [الأنعام: ١] وقال في شأن الآيات المسطورة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١]. وأن كلًا من الآيات يسهم في ربط العباد بخالقهم، ويحقق عبوديتهم له. «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ»

وأن أي تقصير أو غفلة عن هذه الآيات أو تلك تصيب العبد بالخسران في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٧] والصدف عن الآيات هو الإعراض عنها بالنفس، أو صرف الغير عنها.

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فاللهم اجعلنا من عبادك الذين ينتفعون بآياتك، ونعوذ بك أن نكون بها من المكذبين، أو عنها من الغافلين أو المعرضين.

(٦) القرآن الكريم كتاب هداية

١- حين نتأمل في القرآن الكريم نجد أن الله تعالى حين خلق الإنسان يَسَّر له أسباب التعرف عليه، والاهتداء إلى صراطه المستقيم.

يقول الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وقال سبحانه على لسان أهل الجنة: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِىَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقد بيَّن رب العزة وسائل تحقيق هدايته للبشر وتمثلت في إرساله للرسل، وإنزاله للكتب لتتوفر بين أيديهم عناصر الهداية، ولا يكون لهم على الله حجة.

وفي إشارة إلى هاتين الوسيلتين يقول رب العزة: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال أيضًا: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وبدون الاعتماد على ما يسَّره من أسباب لتحقيق الهداية لن يصل الإنسان إلى الهداية مطلقًا، وسيظل سائرا في غيِّه، متماديًا في ضلالته.

يقول رب العزة: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٧]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٢- وفي إطار هذا المعنى المتقدم نجد أن نبي الله محمدًا ﷺ -وهو خاتم النبيين- والقرآن الكريم -الذي هو خاتمة الكتب- لا يخرج عن هذه الغاية، كما لم تخرج عنها أية رسالة سابقة أنزلها الله على رسول من رسله السابقين.

ففي التوراة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام يقول رب العزة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وفي الإنجيل الذي نزل على سيدنا عيسى عليه السلام يقول رب العزة: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦].

٣- وفي القرآن الكريم يقول ربنا: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ومعاني الهداية في القرآن ودلالاتها منتشرة في القرآن الكريم انتشارًا واسعًا لا يخفى على متأمل، وفيما يلي بعض الآيات الدالة على ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. وقال عز من قائل: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي إشارة قرآنية يوجهنا ربنا إلى إقرار الجن بهذه الحقيقة حين سمعوا القرآن، فقال: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن:

١-٢]. وفي إشارة أخرى ذكر ربنا أن أهل العلم أقرُّوا أيضًا بهذه الحقيقة، فقال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ [سبأ: ٦]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ونلفت النظر إلى أن الهداية في القرآن تأتي على معنى الدلالة والدعوة إلى الخير، وهذه تَعمُّ جميع الناس «هدىً للناس» وتأتي بمعنى التوفيق إلى الخير، والسير في طاعة الله سبحانه وتعالى كما يحب ربنا ويرضى، وهذه تخص أهل الإيمان وحدهم، ومعظم ما ذكره الله في كتابه من هدايات القرآن الكريم تتعلق بهذا المعنى الثاني، ومن ذلك على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ ﴾ [النمل: ٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ٢]. وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ [لقمان: ٢-٣]. والآيات غير هذا كثيرة جدًّا.

٤- وفي إطار التأكيد على أن الوظيفة الرئيسية لهذا القرآن هي الهداية إلى صراط الله المستقيم نضع بين يدي حضراتكم بعضًا من الملاحظات الجديرة بالتأمل.

أ) في الوقت الذي تنتشر فيه معاني الهداية وألفاظها ودلالاتها في القرآن الكريم نجد القرآن الكريم يتناول بعض الشعائر والأحكام التعبدية في عدد قليل جدًا من الآيات، ومنها -على سبيل المثال- أحكام المواريث التي قد

وردت كلها في ثلاث آيات من القرآن الكريم فقط، وأحكام الوضوء جاءت في آيتين.[1]

ب) استعمل القرآن الكريم مع لفظ الهدى لفظ الشفاء عند الحديث عن وظائف القرآن، حيث يقول رب العزة: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]. والشفاء أعم من الدواء أو العلاج، فإن الدواء قد يتحقق معه الشفاء وقد لا يتحقق، ولكن القرآن الكريم يتحقق به الشفاء قولًا واحدًا.

والقرآن شفاء لما في الصدور مما يعتريها من شك ورجس، وشبهات وشهوات، وشفاء للمجتمع من أمراض الحقد والكراهية، وأمراض تتعلق بالاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع، أو ما سوى ذلك.[2]

ج) النور الذي وُصِفَ به القرآن الكريم لا يقتصر على الآخرة فحسب، ولكنه للاستفادة به في أمور الحياة الدنيا، ومعرفة الحق فيها من الباطل.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟

---

١ – انظر (غربة القرآن) ص٢٠٦ – د/ مجدي الهلالي.

٢ – قد يستشفى البعض بتلاوة القرآن الكريم على بعض المرضى، والاسترقاء ببعض آياته من عين أو حسد أو نحو ذلك، ولا بأس بهذا التصرف شريطة ألَّا يُعتقد بأن هذه هي الغاية المرجوة من القرآن فقط.

بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨]. وألفاظ ﴿ يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿ تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] تدل على هذا المعنى المشار إليه.(١)

د) وصف الله تعالى القرآن الكريم بالحكمة، فقال: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾ [يس: ١-٥]. والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، وتلك هي صفة القرآن الكريم التي تبني الفرد والمجتمع، وتصلح شئون الدنيا والآخرة، وتوازن بين حاجات الروح وحاجات البدن، فهو كتاب يتحرك، وليس مجرد قوالب ونصوص لا فائدة منها.

٥- ونخلص من هذا كله إلى أن القرآن الكريم كتاب هداية، وذلك في كل ما يسوقه لنا، سواء كان قصة أو مثلًا أو موعظة أو حكمًا يشتمل على أمر أو نهي...إلخ.

وصدق الله القائل: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ [النحل: ٨٩]. وفي الحديث: عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ

١ – انظر (المدخل إلى الدراسات القرآنية) ص٢٣ – أبو الحسن الندوي.

إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ ﷻ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا». (١)

وقال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبِيِّه». (٢)

إن القرآن الكريم بهداياته بعث الروح في قلوب كانت ميتة، وأضاء بأنواره حياة كانت مظلمة، وقاد شعوبًا للشرف والسيادة كانت مهملة.

ورغم وجود القرآن الكريم بيننا نقرؤه غضًّا طريًّا كما أنزل، إلا أننا تخلفنا حين تقدم أسلافنا، وتحكَّم فينا أعداؤنا بعد أن كنا سادة الدنيا وأساتذة العالم، والسِّرُّ في هذا يعود إلى اختلاف النظرة وطريقة التعامل بيننا وبين أسلافنا مع تعاليم هذا القرآن الكريم.

وهو ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه في النقطة التالية بإذن الله تعالى.

---

١ – أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (١٢٢).

٢ – رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد – الترغيب والترهيب للمنذري (ج١ – ص٧٢) طبعة ١٩٦٩م – مكتبة الجمهورية العربية، وقال عنه: رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، وله أصل في الصحيح (ج١ – ص٧٤) – الترغيب والترهيب.

(٧) منهج التعامل مع القرآن الكريم بين سلف الأمة الصالح والأجيال المعاصرة

١- من الأهمية بمكان أن يتعرَّف المسلم على منهج السلف الصالح في التعامل مع القرآن، لينسج على منوالهم، ويحقق العزة والتمكين لدينه كما كان هؤلاء السلف.

وقد قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وقال الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم * إن التشبه بالرجال فلاح**

٢- وخير ما نبدأ به في هذا المجال هو رسول الله ﷺ الذي نزل عليه القرآن.

إنه ما من شك في أن النبي ﷺ صنع أمَّة، وصاغ جيلًا استطاع في فترة وجيزة أن يغير وجه العالم، وأن يقدِّم للإنسانية نماذج رائعة في مختلف المجالات.

وتلك -والله- أعظم معجزاته ﷺ، وأقوى أدلَّة صدقه في نبوته.

ولم يكن لدى النبي ﷺ كتاب يقرأه غير القرآن، وقد اختلط القرآن بروحه ونفسه حتى كان قرآنًا يمشي بين الناس، وكان خلقه ﷺ -كما في الحديث- هو القرآن.

ولم تكن السنة النبوية التي تشتمل على أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ إلا انعكاسًا لتعاليم هذا القرآن العظيم، ورشفًا من رحيقه، وتطبيقًا عمليًا لما يدعو إليه.

لقد كان القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ هو كل شيء، فهو أداته الفعالة في دعوة الناس إلى الله تعالى، وهو في سُلَّمِ أولوياته عندما كان يعلِّم أصحابه أو يوفدهم إلى بقاع أخرى لدعوة الناس إلى الإسلام، وكان القرآن وِرْدَهُ الذي يحرص عليه-وبخاصة في قيام الليل- فكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه من طول القيام، ويعيش مع الآيات باكيًا ومتضرعًا، متدبرًا وداعيًا.

والأدلة على هذا كله كثيرة لا تحصى.

وقد حرص النبي ﷺ أن يورِّث أصحابه الاهتمام بالقرآن الكريم، وألا يشغلهم عنه شيء آخر سواه، وأن يكون نبعًا صافيًا لا يشوبه شيء.

وقد ورد في هذا أن النبي ﷺ رأى سيدنا عمر رضي الله عنه يُمسك بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب في يده، فقال له في لهجة غاضبة: «أَمُتَهَوِّكُونَ(١) فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»(٢)

---

(١) أمتهوكون: قال قال في النهاية (ج٥ – ص٢٨٢) مادة هوك: التهوك كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية، والمتهوك: الذي يقع في كل أمر، وقيل: هو التحير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٨٧).

وعلى هذا المنوال سار أصحاب النبي ﷺ، فلم يكن لديهم غير القرآن مرجعًا ودستورًا رغم شيوع الأفكار والثقافات التي كانت حولهم في شرق وغرب، كما أنهم تلقوا القرآن الكريم باعتباره واجبات وتكليفات يقومون بها، وليس مجرد آيات يتلونها، أو نصوص يحفظونها.

تقول السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ -كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ- تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ». [1]

ويقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ». [2]

ويقول الإمام الحسن البصري -وهو من التابعين-: «إن من كان قبلكم رأوه -أي القرآن- رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار». [3]

وكان هذا هو منهج الصحابة الأوائل ومن سار على نهجهم من سلف الأمة الصالح حيال القرآن الكريم، وهو المنهج الوحيد الذي حقق لهم السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي (ج١٥ – ص٢٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (ج١ – ص٣).

(٣) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٤٩٨).

وعزة الأمة ورفعة رايتها أو ذلها وتخلفها رهين بقربها وتمسكها بهذا القرآن الكريم أو بُعْدِها عنه، وهو ما أكد عليه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف، والذي قال فيه: «إِنَّ اللهَّ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».(١)

٣- ولأهمية التعامل مع القرآن الكريم بهذا المنهج الذي سلكه أصحاب النبي ﷺ -وكان سببًا في هدايتهم وريادتهم- حذر الصحابة من العدول عنه، سواء باعتماد وثائق أو مراجع غيره، أو الاكتفاء بحفظه وتلاوته دون العمل به.

فمن قبيل الأول ورد عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: «أتى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لما فتحنا المدائن أصبنا كتابًا فيه كلام معجب. قال عمر: أمن كتاب الله؟ قال الرجل: لا.

فدعا بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل يقرأ: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ [يوسف: ١-٣].

(١) أخرجه مسلم – حديث رقم (٢٦٩ / ٨١٧).

ثم قال: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم».[١] **ومن قبيل الثاني وردت عن الصحابة عدة أقوال، من أهمها:**

أ) قول سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ لأحد الناس: «إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه... وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، يُحْفَظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده».[٢]

ب) قول عبد الله بن مسعود ﷺ: «إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، ويسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».[٣]

ج)قول سيدنا عبد الله بن عمر ﷺ: «لقد عشنا دهرًا طويلًا، وأحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يُقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالًا يؤتى

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لابن الجوزي (ج١ -١٢٣).

(٢) موطأ الإمام مالك (ج١ - ص١٧٣) كتاب قصر الصلاة في السفر - باب جامع الصلاة.

(٣) تفسير القرطبي (ج ١ - ص٣٤).

أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين الفاتحة إلى خاتمته لا يدري ما أمره ولا زجره، وما ينبغي أن يُقف عنده منه، ينثره نثر الدقل». [1]

قول أحمد بن أبي الحواري -وهو من علماء وزهاد القرن الثالث الهجري:

«إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن: كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يُشغَلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله. أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقَّه، وتلذذوا به، واستَحْلُوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحًا بما قد رُزِقوا». [2]

والأمثلة والأقوال غير هذا كثيرة، وسنأتي على أطراف منها في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى.

٤- فإذا قارنَّا هذا الاهتمام بالقرآن لدى سلفنا الصالح فسنجد الشُّقَّة بعيدة بيننا وبينهم.

ويمكن تلخيص أحوال المسلمين الآن مع القرآن في الصور التالية.

أ) فريق من المسلمين لا يعرف عن القرآن شيئًا، ولا يسمع به، وإذا سمع تلاوة القرآن بادر بالسؤال قائلًا: من مات؟

---

(١) الدقل: رديء التمر/ والحديث رواه ابن ماجه، ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين مع اختلاف يسير بين الروايتين (ج١ - ص١٣٠) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحافظ العراقي.

(٢) لطائف المعارف (ص١٨٣) ابن رجب الحنبلي - طبع دار الفتح - بدون تاريخ.

وإلى هؤلاء يشير المفكر الإسلامي محمد إقبال بقوله: «إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتُقْرَأ عليك سورة يس لتموت بسهولة.

فواعجبًا! قد أصبح الكتاب الذي أُنزِل ليمنحك الحياة والقوة يُتْلى الآن لتموت براحة وسهولة». [1]

ب) فريق آخر من المسلمين يتعامل مع القرآن على أنه مصدر للتبرك به، أو لدفع النوازل، واتخاذه أحجبة وتمائم لصرف الشياطين وأعين الحاسدين.

ج)وفريق ثالث من المسلمين تعامل مع القرآن على أنه ألحان وتراتيل يجري أداؤها على قوانين الموسيقى وقواعدها، وانصبَّ الاهتمام لديهم على تجويد الصوت وتحسينه لا غير، ويتبعهم جمهور من المسلمين يبدون إعجابهم بأداء هذا الشيخ أو ذاك، ويطلقون عبارات الاستحسان والإعجاب دائمًا، دون نظر إلى ما تدل عليه آيات القرآن الكريم أو تدعو إليه.

د) وفريق رابع أولى عنايته بالقرآن الكريم بتلاوة آياته، وحفظها كلها أو بعضها، وانصبَّ الاهتمام لديهم على تجويد الحروف وتحسينها، وقد يتقن قراءةً أو أكثر من القراءات المتواترة، ولكن طغى الاهتمام بالمباني على حساب المعاني، وبرزت العناية بالحروف على حساب الحدود.

---

(١) روائع إقبال (ص٤٣) أبو الحسن الندوي.

هـ) وفريق خامس عاش بالقرآن وللقرآن، أسهر به ليله، وأبكى به عينه، واستشفى بدوائه، وتخلَّق بأخلاقه، واطمأن قلبه، وخشعت جوارحه بتوجيهاته وآدابه، وهؤلاء يقول عنهم الإمام الحسن البصري: «فبهم يسقي الله الغيث، وينزل النصر، ويرفع البلاء، واللهِ لهذا الضرب في حملة القرآن أقلُّ من الكبريت الأحمر». [١]

٥- وإذا كنا لا نعيب أن يستمع المسلم لقارئ حسن الصوت بالقرآن، وأن يحرص على تلاوته بطريقة صحيحة تراعي أحكام التلاوة، ولو عَرَف أكثر من قراءة فهذا يحمد له ويشكر عليه.

ولكن يبقى أن هذه كلها وسائل لا غايات، فإذا انصب الاهتمام على الألفاظ دون المعاني، وعلى الوسائل دون الغايات من إنزال الله للقرآن فنحن أمام مشكلة، تحول فيما بيننا وبين الاستفادة من القرآن، وهو ما حذَّر منه الأئمة والمصلحون.

يقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أُنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملًا، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسْقِط منه حرفًا، وقد أسقط العمل به». [٢]

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٥٣١ – ٥٣٢).

(٢) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٤٩٨).

ويقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي في شأن تعاملنا مع القرآن الآن: «كأننا نعيش المنهج التربوي والتعليمي المعكوس، فالإنسان في الدنيا كلها يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ، لأن الهمَّ كله ينصرف إلى حسن الأداء.. وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل، وغاية جهده إتقان الشكل، وقد لا يعيب الناس عليه عدم إدراك المعاني قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ.

ويضيف قائلًا: ونحن هنا لا نهوِّن من أهمية ضبط الشكل، وحسن الإخراج، وسلامة المشافهة، لكننا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تترافق مع القراءة». [١]

وجاء في كتاب «هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها»: «هذا كتاب الله بين أيدينا، فكيف نقتبس نوره؟ وكيف نتلقى رسالاته؟ كيف نشعر بوقع كلماته في قلوبنا؟ وكيف نكتشف ذلك النور الذي تتحدث عنه الآيات؟ وكيف نتلقى ذلك الروح الذي تفيض به الكلمات؟ ماذا نصنع حتى نتفاعل مع القرآن كما تفاعل جيل الصحابة الكرام ومن سار على أشواقهم من الصديقين والشهداء والصالحين عبر التاريخ؟ أوليس هذا القرآن نفسه هو الذي تخرجت به هذه الأمة؟

(١) كيف نتعامل مع القرآن (ص١٥).

إن المشكلة اليوم هي أننا نقرأ القرآن على أنه مجرد مصحف لا روح فيه، وندرس تفسيره ومعانيه على المستوى الشكلي من حيث البلاغة، والمناسبة بين الآيات، وجمال الألفاظ، وبراعة الاستهلال... إلخ. هكذا نتعامل مع القرآن في كثير من الأحيان. إن ذلك شيء مهم، ولكنه لا يرتقي بالتعامل مع كتاب الله من مستوى «المصحفية» إلى مستوى «القرآنية» الذي يجعلنا نتلقاه على أنه وحي من الله إلينا، وما كان لكلام الحي الذي لا يموت أن يبلى أو يموت، ولكن شعورنا هو الذي يموت، وإحساسنا بقيمة هذا القرآن هي التي يصيبها الوهن والضعف.(١)

٦- إن ألفاظ القرآن تُعَدُّ بمثابة البناء الذي تحل فيه الروح، ولو غابت هذه الروح لتحولت الألفاظ إلى جثة هامدة، لا تحرك ساكنًا، ولا تشعُّ ضياءً.

ومن ثَمَّ فإن المشكلة تتمثل الآن في الإنسان الذي ينبغي أن يستجيب لهدى الله المتمثل في القرآن الكريم، ويحوِّل توجيهاته إلى واقع عملي ملموس، يقنع الناس بعظمة هذا الدين، وقدرته على تحويل حياة الناس إلى ما هو أفضل وأجمل، وإلا صار فتنة تصدُّ الناس عن سبيل الله.

وفي القرآن الكريم يقول ربنا على لسان الحواريين من أتباع عيسى عليه السلام:

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران:

---

(١) هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها (ص٣٩ وما بعدها) بتصرف - فريد الأنصاري- طبعة خامسة سنة ٢٠١٩م.

٥٣]. ويطرح صاحب الظلال سؤالًا حول هذه الآية قائلًا: «أي شهادة؟، وأي شاهدين؟».

ثم يجيب موضحًا: «إن المسلم بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين. شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء، وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر.. وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين، صورة يراها الناس فيرون فيها مثلًا رفيعًا فيشهد لهذا الدين.. ومن لم يؤدِّ هذا الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه.. قد قصَّر في شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين، شهادة تصد الآخرين عنه، وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له، وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادِّعائه أنه مؤمن بالله، وما هو من المؤمنين».[١]

(١) في ظلال القرآن (ج١ – ص٤٠٢).

(٨) الشمول في توجيهات القرآن الكريم ،وضرورة تفاعل المسلم معها

١- ما من الأنبياء نبي أرسله الله من قبل رسولنا محمد ﷺ إلا كان مخصوصًا بقومه، وكانت شرائع هؤلاء الأنبياء تناسب حال من نزلت بينهم.

يقول الله تعالى في شأن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء: ٢]. وكثيرًا ما يتحدث القرآن عن الأنبياء فيذكر أن كلًا منهم أخٌ لقومه، وأنه أرسل إليهم.

فمثلًا: «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا - وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا - وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا - كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ». وهكذا مع كل نبي مرسل.

وفي الحديث: «وَكَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».[1]

٢- فلما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ جعله خاتم الرسل فلا نبي بعده، وأنزل عليه القرآن الذي هو كلمة الله الأخيرة إلى الناس، فلا كتاب ولا وحي بعده.

وقد ترتب على هذه الفروق الجوهرية عدة حقائق، نشير إليها -إجمالًا- فيما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري – حديث رقم (٣٣٥)، وأحرجه مسلم – حديث رقم (٥٢١).

أ) أن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه عن أي تحر يف أو تغيير، وذلك بعكس الكتب السابقة فقد أوكل حفظها إلى الربانيين والأحبار من الأمم السابقة.

يقول الله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». وقال في شأن الكتب السابقة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد اختلف الأحبار والرهبان فيما بينهم، فوقع التحريف والتبديل فيما سبق من كتب، بينما بقي القرآن محفوظًا بحفظ الله له، فلا نجد أي اختلاف بين نسخ القرآن مهما تباعدت الأزمان وتعددت الأوطان.

ب) أن الإسلام نسخ ما قبله من الأديان، وأنه الدين الصحيح، وهو الذي ارتضاه الله للعالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وبقاء القرآن الكريم محفوظًا بقاء لهذا الدين إلى يوم القيامة، ولا يقبل سواه.

ج) يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. أن معجزة القرآن باقية إلى قيام الساعة، وهي حجة على كل من بلغه هذا القرآن، لا فرق بين من عاصر نزوله، أو تأخر وصوله إليه لبعد زمانه أو مكانه.

د) يقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: ١٩]. أن الله تعالى ختم الأديان كلها بالإسلام، وأنزل القرآن مصدقًا لما سبقه من الكتب ومهيمنًا عليها، وهو دليل على كمال هذا الدين، وتمام النعمة به من رب العالمين، فلا حاجة لما سواه.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣]. يقول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اليوم أكملت لكم دينكم، وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا».[١]

٣- ولكون الإسلام هو آخر الأديان، والقرآن هو كلمة الله الأخيرة إلى الناس جاءت تعاليمه وافية شاملة لكل ما يحتاجه البشر من عبادات أو معاملات تتصل بالدين أو بالدنيا، تسمو بالروح أو بالجسد، تتعلق بالفرد أو الجماعة، في عصر نزول القرآن الكريم أو بعده.

وقد أكدَّ القرآن الكريم على هذه الحقيقة في أكثر من موضع.

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ [النحل: ٨٩].

---

[١] تفسير ابن كثير (ج٢ – ص١٢).

فقوله: ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] دون استثناء، وقوله: «لِلْمُسْلِمِينَ» دون تحديد زمان أو مكان لهم يدل على هذه الحقيقة.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

والآيات في الإشارة إلى هذا المعنى -صراحة أو ضمنًا- كثيرة ومتعددة.

وفي إشارة مجملة إلى شمولية هذا القرآن يورد البعض أمثلة لهذا الشمول، فيقول: «القرآن ضبط مشيتنا، فقال: «وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا». ضبط صوتنا، فقال: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩]. ضبط نظراتنا، فقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ [طه: ١٣١].

ضبط سمعنا، فقال: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢].

ضبط طعامنا وشرابنا، فقال: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١].

ضبط ألفاظنا، فقال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢].

والقرآن كفيل بضبط حياتنا كلها، وما ذُكر هنا على سبيل المثال لا الحصر.

وفي إشارة إلى شمولية هذا القرآن ورد عن الصحابي الجليل أبي بكر الصديق ﷺ قوله: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في القرآن الكريم». وروى هذا القول منسوبًا إلى ابن عباس ﷺ.(١)

(١) الإتقان في علوم القرآن (ج٢ – ص١٢٦) – جلال الدين السيوطي – طبعة سنة ١٩٧٣م – المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان.

ويقول الإمام الشافعي ﷺ: «ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها».[٢]

ويقول الإمام السيوطي ﷺ: «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين» ثم ساق في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» كيف استفاد أهل كل علم منه.[٣]

٤- ويستتبع إيمان المسلم بشمولية هذا القرآن أن يُقْبل بكلِّيته عليه، يغترف من معينه، ويرتشف من رحيقه، ويصوغ حياته وفق هديه وتعاليمه.

يقول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣]. ويقول سبحانه: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». وهذا هو الشرط الأساسي للانتفاع بهذا القرآن، وصيرورته حجة لقارئه لا عليه.

يقول سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: «من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».[١] ومعنى «يثور» ينقِّر ويفتش في القرآن بالتفكير في معانيه وتفسيره وقراءته.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

[١] مجمع الزوائد (ج٧ – ص١٦٥) الحافظ نور الدين الهيثمي، وقال عنه: (رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح).

ويقول صاحب الظلال: «لن ننتقع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا... وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي، سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه، وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق... سنجد عندئذ في القرآن متاعًا وحياة، وسندرك معنى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] فهي دعوة للحياة الدائمة المتجددة لا لحياة تاريخية محددة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ».[٢]

---

[٢] في ظلال القرآن (ج١ – ص٢٦١).

(٩) الإعجاز في حفظ الله للقرآن من أن تناله أيدي العابثين

١- أشرنا فيما سبق -على سبيل الإجمال- إلى أن الله تعالى تولّى بنفسه حفظ القرآن من أي تحريف أو تبديل، وأنه -سبحانه- لم يدع ذلك لأحد من البشر، كما حدث مع التوراة والإنجيل حين أوكل حفظها إلى الأحبار والرهبان، وأن ذلك كان لخلود القرآن، وكونه كلمة الله الأخيرة إلى الناس.

وقد أكد رب العزة على هذه الحقيقة، وساقها مسبوقة وملحوقة بكل وسائل التأكيد، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]. فقوله: «إنا» بدأت بحرف التوكيد، وقوله: «نحن» توكيد للضمير المتصل، وقوله: ﴿ إِنَّا ﴾ [البقرة: ١٤] الثانية توكيد آخر، وقوله: ﴿ لَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٠٢] التقديم للجار والمجرور دليل كذلك على التوكيد، واللام في ﴿ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ ﴾ [يوسف: ١٢] للتوكيد، وكون الجملة اسمية دليل على الثبات والاستقرار، مع استخدام الضميرين ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ [الحجر: ٩] الدالين على العظمة.

وقال تعالى في موضع آخر مؤكدًا على حفظه للقرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

٢- وقال في موضع ثالث: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ ﴾ [الكهف: ٢٧]. وقد وردت هذه الآيات

وأشباهها في القرآن بمثابة وعود من الله تعالى بحفظ هذا الكتاب الكريم من أن تناله أيدي العابثين بالتحريف أو التبديل، زيادةً أو نقصًا، وها نحن بعد مضي أكثر من أربعة عشر قرنًا ونصف على هذه الوعود الربانية نرى الواقع يشهد بذلك، ويدل عليه، وهو ما لا يستطيع إنكاره إلا جاحد أو معاند، ولولا هذه الوعود لنال القرآن من التحريف ما نال غيره من الكتب السابقة، وهو ما يؤكد ربانية هذا القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى.

٣- وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]. وإذا كانت الحكمة تقول: إذا أراد الله شيئًا هيأ له أسبابه، فإن الله -سبحانه- حين وعد بحفظ هذا القرآن هيأ له من الأسباب ما يحول دون تحريفه أو تبديله، وهما وسيلة القراءة والحفظ في الصدور، والكتابة والتوثيق في السطور، وبذا يتحقق للقرآن التواتر من الجهتين، ولا تغني وسيلة منهما عن الأخرى.

وبالتالي لا تصح قراءةٌ ما حتى تتوافق مع المصحف العثماني المكتوب في السطور، ولا يقبل المكتوب حتى يتفق مع قارئ متقن له، تلقاه عن غيره، وغيره تلقاه عن غيره حتى يصل السند إلى رسول الله ﷺ.

وفي إشارة إلى هذه الوسائل يقول رب العزة: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ

فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

وهذا هو السر في تسمية القرآن مرَّة باسم الكتاب، ومرَّة باسم القرآن إشارة إلى المكتوب والمقروء، كوسائل لتوثيق هذا الكتاب الكريم.

٤- وإذا طبقنا هذا الكلام على الواقع فإننا نشاهد طبعات القرآن الكريم تملأ الدنيا شرقًا وغربًا، وحفاظ القرآن الكريم بالملايين من جميع جنسيات العالم، ووسائل النقل الحديثة من إذاعة وتليفزيون وإنترنت تذيع القرآن الكريم على مدار اليوم كله، ومع هذا لا تختلف نسخة من المصحف مع أخرى، أو يختلف قارئ مع غيره.

يضاف إلى هذا أنه مع كثرة قراء القرآن الكريم والاستماع إليه يحتفظ النص القرآني بأصالته وحيويته، فهو لا يُمَلُّ مهما طال عهد الإنسان به، وقد ورد في وصفه: «هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملُّه الأتقياء، ولا يَخْلَقُ على كثرة كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

ومن كلمات الإمام الشاطبي رحمه الله:

وإن كتاب الله أوثق شافع * وأغنى غناء واهبًا متفضلًا**

وخير جليس لا يُمَلُّ حديثه * ترداده يزداد فيه تجملا**

٥- وكل هذه شواهد على عظمة هذا القرآن، وجلال منزلته، ورفعة قدره، وصدق الله منزل القرآن إذ يقول عنه وعن مكانته: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا

عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ [الزخرف: ٣-٤]. ونحن نتحدث عن حفظ الله للقرآن لا يفوتنا أن ننبه على مدى الجهود التي بذلت، والمحاولات التي قام بها أعداء الإسلام لتحريف هذا القرآن، وقد مرَّ بنا قول المبشر «تاكلي» بشأن القرآن وقوله عنه: «هو أمضى سلاح في الإسلام».

وقول «لاكوست» وزير المستعمرات الفرنسي حين عجز عن فرنسة الجزائر: «ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟!».

وقد بينَّا أن هذه الحرب رافقت نزول القرآن ولازمته من أول نزوله، وحتى يومنا هذا، كما قال الله في قرآنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾ [فصلت: ٢٦]. جاء في كتاب «خصائص القرآن الكريم» [1] فيما يتعلق بمحاولات الأعداء لتحريف هذا القرآن ما نصُّه: «انظر بعين البصيرة، واخترق بنورها حواجز القرون، فسترى حتمًا معجزة إلهية في هذا الكتاب المبين، وإن شئت فقل معجزة في المعجزة، تكالب عليه الأعداء منذ أول إشعاعة له، وتداعت الأمم عليه، وتآمر المتآمرون، وخطط المخططون، على وجهٍ ما من الممكن أن ينجو منهم فلا تتبدل فيه كلمة، زيادة أو نقصًا، ولا يختلف فيه حرف، تقديمًا أو تأخيرًا، لولا أن هناك قوة أكبر لا يستطيعها بشر، تولت حفظ هذا الكتاب... ومع ما أصاب العالم الإسلامي

[1] خصائص القرآن الكريم (١٧٣ – ١٧٦) بتصرف يسير – د/ فهد عبد الرحمن الرومي.

من تفككك، وما أصابهم من ضعف وعجز عن حماية أنفسهم وعقيدتهم وأرضهم وأعراضهم وأخلاقهم، وانسلاخ الكثيرين منهم من أصولهم الإسلامية، ووقوعهم في فلك التقليد لأعدائهم... إلخ.

ومع كل هذا التأثير من أعداء الإسلام فإنهم لم يستطيعوا تحريف أو تبديل أو أدنى تغيير في هذا الكتاب، ولم يكونوا فيه من الزاهدين، ولا عنه من المتورعين، فهم أحرص الناس لو كانوا يستطيعون.

استطاعوا الدسَّ في سيرة الرسول ﷺ وفي تاريخ المسلمين، وشوهوا قيادات إسلامية حكيمة، وزوروا أحداثًا، وحطموا دولًا ومجتمعات، واتخذوا لهم زعامات أظهروها في صور الأبطال أو المصلحين، أو أدعياء النبوة، حتى القرآن دسُّوا الشبهات في علومه ومعارفه، في نزوله وجمعه، في تفسيره... إلخ.

لكن شيئًا واحدًا مع كل هذه الظروف، وكل هذه الأحداث، وكل هذه القدرات والمحاولات، والمكر والكيد، لم يستطيعوه، ألا وهو زيادة حرف أو نقص حرف، فضلًا عن الكلمة، أو تقديم جملة على جملة، أو تغيير عبارة بأخرى في هذا القرآن». [1]

---

[1] في الوقت الذي يعجز فيه البشر جميعًا عن تغيير أو تبديل شيء في كتاب الله تعالى، يستطيع القرآن أن يغير من كينونة الإنسان، ويغير من أوضاع المجتمعات، فينقلها من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى.

وهذا شاهد بإعجاز هذا القرآن، وأنه ليس من تأليف بشر، بل هو وحي أنزله رب القوى والقدر.

٦- ومع بقاء القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله له يبقى هو الأداة الفعالة في عصرنا الحاضر لجذب الناس إلى الإسلام، وإقناعهم بصلاحية هذا الدين، وفي كل يوم تزداد رقعة الإسلام ويدخل إليه أناس هم أحوج ما يكونون إليه، والفضل في هذا يرجع إلى الله تعالى أولًا، ثم لتعاليم هذا القرآن وأحكامه التي تغزو القلوب والعقول بصلاحيتها الذاتية، وليس بالنظر لواقع المسلمين وأحوالهم، فهي في الحقيقة تشهد على الإسلام ولا تشهد له، وتصدُّ الناس عنه ولا ترغبهم فيه، وتبغضه إليهم لا تحببهم فيه، إلا من رحم الله.

٧- لقد علَّمنا رسولنا ﷺ أن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين.

فلا عزَّ للمسلمين إلا بهذا القرآن، ولا سبيل إلى النهوض وامتلاك زمام النفس وقيادة الغير إلا بنوره وهداه، وصدق من قال:

عشقــتك يا كـتاب الله حتى * كأني لا أرى حــبًّا سـواكا**

إذا حطَّ الظـــلام على دروبي * بلا خـوف أسير على سناكا**

وإن ضلت خطاي طريق حق * أرى نـور الحقيقة في هداكا**

نَزَلْتَ على الأمين لـنا سـلاما * فهل تقفوا جماعتنا خطاكا؟**

(١٠) منزلة أهل القرآن والبركات التى تحل عليهم

١- يعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه تفضل على أمة الإسلام واصطفاها بإنزال القرآن الكريم عليها، تتلوه في صلواتها، وتتناقله أجيالها، ويسري في جنباتها، فيقيلها إذا عثرت، ويرشدها إذا ضلت، ويحفظ على أفرادها إيمانهم حتى يصل بهم إلى الجنة، حتى وإن قصَّر بعضها أو أساء، وناله بسبب ذلك عقوبة أو جزاء.

يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣]. جاء في «أضواء البيان» للإمام الشنقيطي رحمه الله في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣٢] قال: «الواو في "يدخلونها" شاملة للظالم والمقتصد والسابق على التحقيق[١].. وحق لهذه الواو أن تُكتب بماء العينين لأنه لم يبق من المسلمين أحد خارج هذه الأقسام الثلاثة».

---

(١) هذا على اعتبار أن الأصناف الثلاثة من المسلمين –وهو الصحيح–، ولكن من فاقت سيئاته حسناته كان ظالمًا لنفسه، ومن تساوت حسناته مع سيئاته فهو المقتصد، ومن تفوقت حسناته على سيئاته فهو السابق بالخيرات بإذن الله، والجميع مصيره الجنة، حيث لا يُخلَّد موحد في النار، كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

وسيظل هذا القرآن الكريم مصدر إشعاع وهداية لهذه الأمة، يردها إلى الجادة والصواب كلما بعدت أو انحرفت.

يقول الإمام الشافعي ﵁: إذا أردت صلاح قلبك أو ابنك أو أخيك أو من شئت صلاحه، فأودعه في رياض القرآن وبين صحبة القرآن، فسيصلحه الله شاء أم أبى بإذن الله تعالى.

٢- وقد أشارت الآيات الكريمات السابق ذكرها إلى تفاوت الدرجات بين مسلم وآخر، ويبقى القرآن الكريم هو فيصل هذه التفرقة، فبقدر قرب المرء من القرآن الكريم وتعلقه به علمًا وعملًا يكون من السابقين الأولين، وبقدر بعده عنه تتدنى منزلته إلى ما دون ذلك.

وقد مرَّ بنا قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﵁: «مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَّ ﷻ، فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَى الْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا الْقُرْآنُ كَلامُ اللهَّ ﷻ، فَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللهَّ ﷻ».

وقوله أيضا ﵁: «لا يَسأَلْ أحدُكم عن نفسِه إلاَّ القُرْآنَ، فإن كانَ يُحِبُّ القُرْآنَ ويعجبه فهو يُحبُّ اللهَ -سبحانه- ورسولَ الله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله -سبحانه- ورسوله ﷺ».

وقد أكدت السنة النبوية على هذه الحقيقة، وبينت علوَّ شأن أهل القرآن، وتفوقهم في المنزلة على من سواهم.

يقول ﷺ: «إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ». [(١)]

وقال أيضًا: «خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ». [(٢)]

وفي حديث ثالث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ». [(٣)]

وفي رواية لمسلم «الفاجر» بدل «المنافق».

٣- ولم يقتصر النبي ﷺ على بيان فضل أهل القرآن بمجرد الكلام عنهم، وإنما شفع ذلك بمواقف عمليةتدل على تقديره لهم، وتقديمهم على من سواهم، وهذه بعض الأدلة:

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة –حديث رقم (٢١٥)، وقال عنه البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح، وأخرجه كذلك الإمام أحمد (ج٣ – ص١٢٧ – ص١٢٨ – ص٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري حديث رقم (٥٠٢٧).

(٣) اخرجه البخاري – حديث رقم (٥٤٢٧)، وأخرجه مسلم – حديث رقم (٢٤٣ / ٧٩٧).

أ) عن جابر بن عبد الله ﵄ أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُدٍ في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟» فإذا أشير إلى أحدهما قدَّمه في اللحد.[1]

ب) عن أبي هريرة ﵁ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا وَهُمْ ذُو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ، فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: «مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ البَقَرَةِ قَالَ: أَمَعَكَ سُورَةُ البَقَرَةِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ».[2]

ج)عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقبَة بن عَمرو الْأَنْصَارِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا».[3] يعني: إسلامًا.

٤- وعلى نهج رسول الله ﷺ في تكريم أهل القرآن وتقديمهم على من سواهم سار سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، وإليكم هذين المثلين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه – حديث رقم (٢١٥).

(٢) أخرجه الترمذي، وحسنه – حديث رقم (٣٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم – حديث رقم (٢٩٠ / ٦٧٣)، وفي رواية لمسلم أيضًا (فإن كانوا في الهجرة سواءً فأكبرهم سنًّا).

أ) عن نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».(١)

ب) كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله على سائر البلاد: أن لا يستعملوا على الأعمال إلا أهل القرآن، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عندهم خير.(٢)

٥- وأما عن البركات التي تحلُّ على أهل القرآن، ممن سلكوا سبيله، وساروا على نهجه، وتحلَّوا بآدابه وأخلاقه، هذه البركات ليس لها حدود، وقد قيل في مأثور الحكمة: «ما خالط القرآن حاجة إلا باركها، ولا ضيقًا إلا وسعه، ولا شتاتًا إلا لَمَّه، ولا ظلمة إلا أنارها، ولا وحدة إلا آنسها»، وكان بعض المفسرين يقول: «اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا».

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم – حديث رقم (٢٦٩ / ٨١٧).

(٢) البداية والنهاية (ج٩ – ص٢٠٧) الحافظ ابن كثير – طبعة مكتبة المعارف – بيروت.

وفيما يلي نشير إلى بعض بركات القرآن وآثاره.

أ) عن تأثير القرآن على من ارتبط به فيما هو مهتم به من شئون حياته ورد عن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي في وصيته للضياء المقدسي لما أراد الرحلة للعلم؛ ورد قوله له: «أَكْثِر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه يتيسر لك ما تطلبه على قدر ما تقرأ».

قال الضياء: «فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي». [1]

ب) وعن تأثير القرآن على عقلية الإنسان وذاكرته دون أن يصيبها خلل أو اضطراب يساعد القرآن الكريم على تقوية الذاكرة وقوة الحفظ، ويصون العقل من الخرف والزهايمر الذي يصاب به كبار السن خصوصًا، وهو ما شهد به كثير من الأطباء المتخصصين، ويؤيده كذلك الواقع.

يقول الإمام القرطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من قرأ القرآن مُتِّع بعقله وإن بلغ مائة عام».

وعن عبد الملك بن عمير قال: «كان يقال إن أبقى الناس عقولًا قراء القرآن الكريم». وفي رواية: «أنقى».

(١) ذيل طبقات الحنابلة (ج٣ – ص٢٠٥) ابن رجب الحنبلي.

ج)يؤثر القرآن الكريم على الحالة النفسية لصاحبه، فتراه أكثر طمأنينة وأهدأ بالًا، وأشرح صدرًا، كما يعمل على تعديل السلوك وتقويم الأخلاق إلى ما هو أفضل وأجمل.

يقول ابن الجوزي: «تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعمله العسل في علل الأجساد». [١]

ويقول الدكتور أحمد المعصراوي في أحد منشوراته على «الفيس بوك»: «كثرة قراءة القرآن تربي صاحبها دون أن يشعر، فيزيد إيمانه، ويطمئن قلبه، ويهنأ بحياته، ويقنع برزقه، ويقلُّ مزاحه، وتظهر الفصاحة في حديثه، ويخلو حديثه من الألفاظ التي لا تليق بمثله، ويترك مجالس اللغو، ويترك أمورًا كان يفعلها؛ لأن قلبه قد أضاء واستنار». أ.هـ.

د) وفي المجال الاجتماعي يحظى أهل القرآن بالاحترام والإجلال من فئات المجتمع كله، ويُعّدُّ هذا الاحترام والتكريم تعظيمًا وإجلالًا الذي أكرمهم بهذا القرآن.

وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهَّ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ

(١) التبصرة (١ / ٧٩).

الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ [١]، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ» [٢] أي السلطان العادل.

ويقول أحد السلف الصالح: «ما رأيت أحدًا تعلق بالقرآن إلا أعطي هيبة ومحبة في قلوب الخلق، مع سعة في الرزق والعمل، وبركة في العمر، وطيب في العشرة، وحسن الخلق».

وفي محيط الأسرة الخاصة لحامل القرآن يكثر خير بيته ويتسع، ويّشُعُّ منه أنوار القرآن فتضيء بيته والبيوتات من حوله.

قال ابن المنكدر رضي الله عنه: «إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر». [٣]

والخلاصة أن كل شيء مع القرآن مختلف، سواء كان فرديًا أو اجتماعيًا، تعلَّق بالروح أم بالجسد، اتصل بالدنيا أم بالآخرة، فيما مضى أو فيما هو آت، فالله لن يضيع عبدًا اشتغل بالقرآن.

---

(١) غير الغالي فيه: أي غير المتجاوز الحدَّ في العمل به، و(الجافي عنه) المعرض عن تلاوته، فهو من يكثرُ تلاوة القرآن الكريم، ويلتزم بآدابه وأحكامه.

(٢) أخرجه أبو داود، وسكت عنه - حديث رقم (٤٨٤٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص١٠٧) ابن رجب الحنبلي - طبعة سنة ٢٠٠٢م - دار الفجر للتراث.

٦- وإذا كان ما مضى ذكره من بركات القرآن الكريم زنفحاته يشعر بها المرء في هذه الدنيا، فإن البركات الأعظم، والخواتيم الأرقى والأحسن تكون حين يأذن الله تعالى لحملة القرآن وأهله بالرحيل من هذه الدنيا، والإقبال على الآخرة، وذلك على النحو التالي:

أ) عند الموت يبشر أهل القرآن بحسن العاقبة، وجميل المثوبة عند الله تعالى.

قال بعض السلف: «إذا حضر الرجل الموت يقال للمَلَك: شُمَّ رأسه. قال: أجد في رأسه القرآن. قال: شُمَّ قلبه. قال: أجد في قلبه الصيام. قال: شُمَّ قدميه. قال: أجد في قدميه القيام. قال: حفظ نفسه فحفظه الله». [(١)]

ب) إذا وُضِع الرجل من أهل القرآن في قبره وقاه الله من عذاب القبر، وجعل القرآن الكريم له مؤنسًا في وحدته، ونورًا في ظلمته.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لاَ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لاَ أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ

---

(١) المرجع السابق (ص٣٠٨).

تَبَارَكَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». [1]

ج) حين يأذن الله تعالى ببعث ألأموات من قبورهم يكون القرآن الكريم في طليعة ما يلقاه من هو من أهل القرآن، فيطمئنه، ويسوق إليه البشريات التي تنتظره عند لقاء ربه.

فعَنْ بُرَيْدَةَ عن أبيه رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِب[2]، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِر، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بشِمَالِهِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ...» [3]

د) وإذا أذن الله تعالى بدخول عباده المؤمنين الجنة يرتقي أهل القرآن إلى أعلى الدرجات فيها، ويطالبون بقراءة القرآن على النحو الذي كانوا يتلونه في الدنيا، وكلما قرأوا منه شيئًا ارتقوْا في درجات الجنة وعلت مراتبهم، بحيث يكونون في أعلى مراتبها، وأسمى درجاتها.

---

(١) اخرجه الترمذي، وقال عنه: (هذا حديث حسن) – حديث رقم (٢٨٩٠).

(٢) الشاحب: المتغير لون جسمه لعارض من سفر أو مرض أو خوف، أو غير ذلك.

(٣) أخرجه أحمد (ج٥ – ص٣٤٨)، وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (ج٧ – ص١٥٧): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح).

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العَاصِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا». (١)

يقول سيدنا عمرو بن العاص ﷺ: «كل آية درجة في الجنة، ومصباح في بيوتكم». (٢)

ويَقُولُ الإِمَامُ الْخَطَّابِيُّ فِي تَعليقٍ لَهُ عَلَى الحَدِيثِ السَّابقِ: «جَاءَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ عَدَدَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى قدر درج الجنة في الآخرة فيقال للقارئ ارْقَ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ فَمَنِ اسْتَوْفَى قِرَاءَةَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ اسْتَوْلَى عَلَى أَقْصَى دَرَجِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ قَرَأَ جُزْءًا مِنْهُ كَانَ رُقِيُّهُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ فَيَكُونُ مُنْتَهَى الثَّوَابِ عِنْدَ مُنْتَهَى الْقِرَاءَةِ». (٣)

هـ) ومع تفضُّل الله تعالى على أهل القرآن بكل ما سبقت الإشارة إليه يعطيهم الله تعالى فضلًا آخر يتمثل في شفاعتهم لغيرهم من المسلمين، وعلى رأس هؤلاء المستفيدين من تلك الشفاعة آباؤهم.

(١) أخرجه الترمذي، وقال عنه: (هذا حديث حسن صحيح) – حديث رقم (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود بنحوه – حديث رقم (١٤٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢ / ٤٩٦).

(٣) الترغيب والترهيب (٢ / ٥٨٦) الحافظ المنذري – طبعة مكتبة الجمهورية العربية سنة ١٩٧٠م.

ففي الحديث عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟». (١)

وتأكيدًا على مضمون هذا الحديث يقول الإمام الشاطبي رحمه الله متحدثًا عن أهل القرآن:

هنيئًا مريئًا والـداك عليهـما * ملابس أنوار من التاج والحلا**

فما ظنكم بالنجل عند جزائه * أولئك أهل الله والصفـوة الملا**

ولنتخيل موقف القيامة حين يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، في حين أن الولد إذا كان من أهل القرآن يبحث عن والديه ليلبسهما تاجًا يفوق ضوؤه ضوء الشمس في بيوت الدنيا.

٧- إن الخير كله في التمسك بهذا القرآن، والشر كله في الإعراض عنه، وقد صحَّ في هذا عن الإمام الحسن البصري رضي الله عنه قوله: «والله ما دون القرآن من غني، ولا بعده من فاقة». (٢)

(١) أخرجه أبو داود وسكت عنه – حديث رقم (١٤٥٣)، وأخرجه أحمد (٣ / ٤٤٠).

(٢) إحياء علوم الدين (٣ / ٤٩٧).

وعليه فإن صاحب القرآن أغنى إنسان على هذه الأرض، ولا يطاوله أحد من البشر وإن ملك الدنيا بأسرها، وفي هذا ورد: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يرى أحدًا من أهل الأرض أغنى منه، ولو ملك الدنيا برحبها». [1]

وجاء في تفسير القرطبي نقلًا عن بعض الحكماء قوله: «مَنْ أُعْطِيَ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَرِّفَ نَفْسَهُ، وَلَا يَتَوَاضَعَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِأَجْلِ دُنْيَاهُمْ، فَإِنَّمَا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ أَصْحَابُ الدُّنْيَا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الدُّنْيَا مَتَاعًا قَلِيلًا فَقَالَ: «قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ»، وَسَمَّى الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ خَيْرًا كَثِيرًا». [2]

(١) غريب الحديث - لأبي عبيد بن سلام (٢/ ١٧١).

(٢) تفسير القرطبي (١١٣٩) - طبعة دار الشعب.

(١١) أخلاق أهل القرآن

١- وردت لفظة «أهل القرآن» في سياق كلام النبي ﷺ -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- كما تحدث عنهم كذلك أهل العلم واستفاضوا في ذلك.

وينعقد إجماع أهل العلم على أن هذه العبارة لا تقال لأي شخص، وإنما يستحقها من كان القرآن في حياته لفظًا ومعنىً، وحروفًا وحدودًا، وعلمًا وعملًا.

يقول الإمام عبد الرؤوف المناوي شارح الجامع الصغير للسيوطي في التعريف بأهل القرآن: «أي حفظة القرآن، والعاملون به، هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به، سُمُّوا بذلك تعظيمًا لهم، كما يقال: "بيت الله"». [(١)]

وقال الحكيم الترمذي عن أهل القرآن: «وإنما يكون في قارئ انتفى عنه جور قلبه، وذهبت جناية نفسه... وليس من أهله إلا من تطهر من الذنوب ظاهرًا وباطنًا وتزين بالطاعة، فعندها يكون من أهل الله». [(٢)]

ويقول الإمام الآجري: «ينبغي لمن علمه الله القرآن، وفضَّله على غيره ممن لم يحمله، وأحبَّ أن يكون من أهل القرآن، وأهل الله وخاصته أن يجعل

(١) فيض القدير – شرح الجامع الصغير (ج٣ – ص٦٧) – طبعة سنة ١٩٧٢م – دار المعرفة.

(٢) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

القرآن ربيعًا لقلبه، يعمِّر به ما خرب من قلبه، يتأدب بأدب القرآن، ويتخلق بأخلاق شريفة يتميز بها عن سائر الناس ممن لا يقرأ القرآن...». [1]

٢- ويتضح مما ذكرناه أن الأمر لا يقف عند حدِّ الحفظ أو التلاوة فقط، وإنما أن يتحول المرء إلى أن يعيش القرآن واقعًا حيًّا وعمليًّا، فترى القرآن في سلوكه، ويحيا في معاملاته وأخلاقه، وقد نقل الإمام ابن القيم عن بعض السلف قال: «أهل القرآن هم العالمون به، العاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب [2]، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم». [3]

٣- ومن هنا كثرت أقوال أهل العلم فيما ينبغي أن يتحلى به حامل القرآن من صفات وأخلاق.

ونحن نورد هنا بعضًا مما قاله أهل العلم في هذا الجانب، سائلين الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته.

---

(١) أخلاق أهل القرآن (ص٧٧) بتصرف يسير - حققه وخرج أحاديثه: عمرو عبد اللطيف - نشر دار الكتب العلمية - طبعة ثالثة - سنة ٢٠٠٠م.

(٢) ينبغي ألا يفهم من هذا الكلام التقليل من قيمة حفظ القرآن، فهو من الأهمية بمكان، ولكن ينبغي ألا تنصرف همَّة المرء إلى حفظ الحروف دون حفظ الحدود، ولن يستوي شخصان حفظ أحدهما القرآن وعمل به، والآخر عمل بالقرآن ولم يحفظه.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (ج١ - ص ٣٣٨) - طبعة سنة ١٩٨٥م - بتحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط - طبع مؤسسة الرسالة.

أ) يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﵁: «يَنْبَغِي لحامِلِ القُرآنِ أنْ يُعْرَف بِليْلِهِ إذَا النَّاسُ نَائِمونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرونَ، وَبحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وبِبُكائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضحَكونَ، وبِصَمتِهِ إِذا النَّاسُ يَخُوضُونَ، وَبخشوعه إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ». [1]

٤- ويقول الصحابي الجليل عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَمْرو بن العاص ﵄: «لَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَخُوضَ مَعَ مَنْ يَخُوضُ، وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ لِحَقِّ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ فِي جَوْفِهِ كَلَامَ اللهَّ تَعَالَى. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالتَّصَاوُنِ عَنْ طُرُقِ الشُّبُهَاتِ، وَيُقِلَّ الضَّحِكَ وَالْكَلَامَ فِي مَجَالِسِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِلْفُقَرَاءِ، وَيَتَجَنَّبَ التَّكَبُّرَ وَالْإِعْجَابَ، وَيَتَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْنَائِهَا إِنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ، وَيَتْرُكَ الْجِدَالَ وَالْمِرَاءَ، وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالرِّفْقِ والأدب». [2]

٥- ويقول الفضيل بن عياض ﵀: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيمًا لحق القرآن». [3]

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي - (ص٢٨)، والتذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي (ص٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٧)، والتذكار في أفضل الأذكار للقرطبي أيضًا (ص٩٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٩٦).

وقال أيضًا: «ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة، ولا إلى الخلفاء فمن دونهم، فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه». [١]

٦- وفي كتاب «أخلاق أهل القرآن» لأبي بكر محمد بن الحسن الآجري رضي الله عنه كلام كثير حول ما ينبغي أن يتحلى به حامل القرآن، ونقتبس هنا بعض ما قاله في هذا الصدد:

يقول وهو يصف صاحب القرآن: «قد جعل القرآن والسنة والفقه دليله إلى كل خلق حسن، حافظًا لجميع جوارحه عما نُهي عنه، إن مشى مشى بعلم، وإن قعد قعد بعلم... يطلب الرفعة من الله لا من المخلوقين... يتبع واجبات القرآن والسنة، يأكل الطعام بعلم، ويشرب بعلم، وينام بعلم، ويجامع أهله «أي: يخالطهم» بعلم، ويصحب الإخوان بعلم، ويزورهم بعلم، ويستأذن عليهم بعلم.

ويقول أيضًا عن صاحب القرآن: «إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، ليس همته متى أختم السورة، همته متى أستغني بالله عن غيره، متى أكون من المتقين، متى أكون من المحسنين...».

---

(١) نفس المرجع السابق (٣/ ٥١٦).

ويقول: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله، وما قبح منه، فما حذَّره مولاه، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه.

فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا، وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدنيا والآخرة». (١)

٧- ووصف قال الإمام النووي أحوال وصفات حامل القرآن، فكان فيما قاله: «أن يكون -أي: حامل القرآن- على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالًا للقرآن، وأن يكون مصونًا عن دنيء الاكتساب، شريف النفس مرتفعًا على الجبابرة والجفاة من أهل الدنيا متواضعًا للصالحين وأهل الخير والمساكين، وأن يكون متخشعًا ذا سكينة ووقار، فقد جاء عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: «يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالًا على الناس». (٢)

(١) راجع «أخلاق أهل القرآن» - لأبي بكر الآجري (ص٧٨ - ص٨١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٨).

وأكتفي بهذا القدر من كلمات الأئمة فيما ينبغي أن يتحلَّى به حامل القرآن من أخلاق، والتي أجمعت أن حامل القرآن ينبغي أن يكون شخصًامتميزًا وسط الجميع، وأن يعطي صورة إيجابية تحبب الناس في الإقبال على هذا القرآن.

ويحضرني في هذا المقام موقف لسالم مولى أبي حذيفة -وهو ممن أوصى به النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم- في موقعة اليمامة، وكان رضي الله عنه يحمل راية المهاجرين، وحين قيل له: يا سالم، إنا نخاف أن نؤتى من قِبَلِك. فقال: «بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قِبَلِي». [1]

فما أجمل أن نترسَّم هذه الخطى، ونسير على هذا الدرب!

فنظل بالقرآن متمسكين، وعلى ثغوره حارسين مجاهدين، حتى نلقى الله وهو عنا راضٍ، وصدق الله القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) البداية والنهاية (ج٦ – ص٣٣٧) الحافظ ابن كثير.

(١٢) عقوبة هجر القرآن ، وذم المعرضين عنه

وصف الله ﷻ كتابه الكريم بأنه كتاب عزيز، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. ومما يدل عليه هذا الوصف أن القرآن الكريم يعمل الناس بقدر تعاملهم معه، فإن أقبلوا عليه وفتحوا قلوبهم له فاضت عليهم أنواره، وهبطت عليهم خيراته وبركاته، وإن أغلقوا قلوبهم دونه أغلق عليهم منافذ أنواره وهداياته، ومن حافظ عليه بقي معه، ومن هجره تركه وذهب.

ومن هنا جاءت دعوة الكريم -سبحانه وتعالى- الناس أن يكسروا الأقفال التي تحول بينهم وبين القرآن، وأن يطهروا قلوبهم مما علق بها من غشاوات وشبهات، وذلك حتى يمكنهم الانتفاع به على الوجه الأكمل والأتمِّ.

١ - يقول رب العزة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ [محمد: ٢٤]. فإذا لم يؤد القرآن الكريم دوره المنوط به في حياتنا فالعيب فينا نحن، والخلل إنما في أجهزة استقبالنا له، وصدق الله القائل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩ ﴾ [الإسراء: ٨٩]. وقد كثرت الأدلة والبراهين في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف الصالح على أن الأمر لن يقف عند حدِّ الحرمان من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته،

بل ستطال المعرضين عن القرآن عقوبات متعددة، وألوان من الحرمان مختلفة، وفيما يلي إشارة إلى بعض هذه العقوبات:

أ) الحرمان من أيسر طرق الهداية إلى الله تعالى، ومحاولة الوصول إليه سبحانه بوسائط غير آمنة في مناهجها، وابتداع في طرائقها، ولو سلك الإنسان سبيل القرآن لكان في أمن وأمان، وسلامة وإسلام.

ويشرح هذا المعنى الإمام ابن القيم رحمه الله بشكل مفصَّل، فيقول في كتابه «مدارج السالكين»، وهو يشرح آثار الطاعة وثمراتها: «الْخَوْفُ يُثْمِرُ الْوَرَعَ وَالِاسْتِعَانَةَ وَقِصَرَ الْأَمَلِ. وَقُوَّةُ الْإِيمَانِ بِاللِّقَاءِ تُثْمِرُ الزُّهْدَ. وَالْمَعْرِفَةُ تُثْمِرُ الْمَحَبَّةَ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ. وَالْقَنَاعَةُ تُثْمِرُ الرِّضَاءَ. وَالذِّكْرُ يُثْمِرُ حَيَاةَ الْقَلْبِ» ... إلخ ما ذكر من هذه الطاعات وثمراتها، ثم يضيف قائلًا: «وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ: أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَنْقُلَ قَلْبَكَ مِنْ وَطَنِ الدُّنْيَا فَتُسْكِنَهُ فِي وَطَنِ الْآخِرَةِ، ثُمَّ تُقْبِلَ بِهِ كُلِّهِ عَلَى مَعَانِي الْقُرْآنِ وَاسْتِجْلَائِهَا وَتَدَبُّرِهَا، وَفَهْمِ مَا يُرَادُ مِنْهُ وَمَا نَزَلَ لِأَجْلِهِ، وَأَخْذِ نَصِيبِكَ وَحَظِّكَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، وَتُنْزِلَهَا عَلَى دَاءِ قَلْبِكَ.

فَهَذِهِ طَرِيقٌ مُخْتَصَرَةٌ قَرِيبَةٌ سَهْلَةٌ. مُوَصِّلَةٌ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى. آمِنَةٌ لَا يَلْحَقُ سَالِكَهَا خَوْفٌ وَلَا عَطَبٌ، وَلَا جُوعٌ وَلَا عَطَشٌ، وَلَا فِيهَا آفَةٌ مِنْ آفَاتِ سَائِرِ الطَّرِيقِ الْبَتَّةَ. وَعَلَيْهَا مِنَ اللهِ حَارِسٌ وَحَافِظٌ يَكْلَأُ السَّالِكِينَ فِيهَا

وَيَحْمِيهِمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ. وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَّا مِنْ عَرَفَ طُرُقَ النَّاسِ وَغَوَائِلَهَا وَآفَاتِهَا وَقُطَّاعَهَا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ». أ. هـ[1]

ب) الحرمان من لذة الاستمتاع بالقرآن الكريم.

وقد مرَّ بنا بنا قول أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: «إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله. أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحًا بما قد رزقوا».[2]

وصحب رجل رجلًا شهرين فلم يره نائمًا، فقال: ما لي لا أراك نائمًا؟ قال: «إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى».[3]

وقال محمد بن واسع -وهو من أعلام التابعين-: «القرآن بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة».[4]

---

(١) انظر «مدارج السالكين» - (ج٢ – ص٢٠) – طبعة أولى سنة ١٩٨٢م – دار التراث العربي.

(٢) لطائف المعارف (ص١٨٣) – ابن رجب الحنبلي.

(٣) نفس المرجع.

(٤) حلية الأولياء (ج٢ – ص٣٤٧) – أبو نعيم الأصبهاني – دار الكتاب العربي.

وقال ثابت البناني رضي الله عنه: «كابدت القرآن عشرين سنة، وتلذذت به عشرين سنة». [(١)]

والخلاصة أن في تلاوة القرآن والاستماع إليه لذة ومتعة لو فتح الله بها على أحد فستغنيه هذه اللذة عما عداها، وسيشعر بسعادة تغمر قلبه تجعله في إقبال دائم على القرآن، فإذا ابتلي شخص بالإعراض عن هذا القرآن فقد حرم نفسه من ذلك، وقد قيل: «المحروم من حُرِمَ الخير».

ج) الحرمان من طمأنينة القلب وسلامة النفس.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ضنكًا في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح صدر، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء، وسكن حيث شاء». [(٢)]

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن: ١٧]. أي تلازمه مشقة لا راحة فيها.

د) انعدام البركة في البيوت التي لا يُقْرأ فيها القرآن.

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (ج٣ – ص١٦٨).

ففي الحديث: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ». (١)

وقال الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الْبَيْتَ لَيَتَّسِعُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ أَنْ لَا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ». (٢)

هـ) المعرضون عن القرآن يشكوهم رسول الله ﷺ إلى ربه.

يقول رب العزة: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠]. ويشمل هجر القرآن من هجر تلاوته والإصغاء إليه، ومن هجر تدبره أو العمل به.

و) اتصاف المعرض عن القرآن بالظلم لنفسه، والخسارة لحاضره ومستقبله.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢ / ٧٨٠).

(٢) سنن الدارمي (ج٢ – ص ٤٢٩) – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت.

ز) حسرة المعرضين عن القرآن وندامتهم يوم القيامة بسبب رفضهم له، وإعراضهم عنه.

ح) يقول رب العزة: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. حرمان المعرضين عن القرآن من السبق إلى الجنات، والفوز بالنعيم المقيم والدرجات.

جاء في الحديث: «القرآن شافعٌ مشفَّعٌ، وماحِلٌ مصدَّق [١]، من جعله أَمامَه قاده إِلى الجنّة، ومن جعله خلف ظهرِه ساقه إِلي النّار». [٢]

وورد عن الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعَنَّكُمُ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ هَبَطَ بِهِ عَلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَبِعَهُ الْقُرْآنُ زَخَّ فِي قَفَاهُ فَقَذَفَهُ فِي النَّارِ». [٣]

٢- لقد ذمَّ الله تعالى المعرضين عن القرآن، وعاب عليهم غفلتهم عنه، وتهاونهم في الانقياد له والتفاعل مع آياته على الوجه الذي ينبغي أن يكون.

(١) ماحِلٌ مصدَّق: أي خصم مجادل مصدَّق لكل من أعرض عنه.

(٢) رواه ابن حبان وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٢٣).

فعلى سبيل الاستفهام الإنكاري على هؤلاء المعرضين يقول رب العزة: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٥٩-٦٢] [١]. ويقول في موضع آخر: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١][٢].

فأحرى بنا نحن المسلمين أن نسعد بهذا القرآن العظيم، وأن نعضَّ بنواجذنا على آياته، ونتمسك بهديه وتوجيهاته، فهو في الدنيا خير قرين، وفي القبور نعم الأنيس، وإلى الجنة خير دليل.

---

١) سامدون: غافلون ساهون.

٢) القسورة: الرماة من الصيادين، وقيل: الأسد القوي الشديد.

(١٣)قالوا عن القرآن

١- نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا ونصف قرن، وتعامل معه أناس كثيرون من العرب والعجم، ومن القدامى والمعاصرين، على اختلاف مستوياتهم وأماكنهم وأزمانهم، فبهرهم القرآن بإعجازه، ولم يملكوا أنفسهم من إظهار الإعجاب به والاعتراف بسموه ومكانته.

ولا يُستثنى من هذا الموقف أحد، حتى الذين كفروا بالإسلام وبرسالة النبي محمد ﷺ، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

وهي آية كريمة تشهد بأن خلافهم لم يكن مع القرآن، فهم يعترفون بقدره وقيمته، ولكنهم يعترضون على الرسول المنزَّلِ عليه، ولو أنه نزل على غيره من أشراف العرب لما كانت هناك مشكلة لديهم مع القرآن.

٢- ويؤيد موقفهم من القرآن وانبهارهم به ما ورد أن زعماء قريش - رغم كفرهم به- كانوا يتسللون ليلًا ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتلوه، فإذا أنهى قراءته عادوا إلى بيوتهم فيجمعهم الطريق أثناء العودة، فيلوم بعضهم بعضًا على هذا، ويتعاهدون على عدم العود إلى ذلك مرَّة أخرى، ومع ذلك يتكرر الموقف ثانية وثالثة.

وقد استمع أحد زعمائهم الكبار -وهو الوليد بن المغيرة- للنبي ﷺ وهو يتلو القرآن، فلم يملك نفسه من إظهار الإعجاب به، والثناء عليه بعبارات رصينة، وألفاظ جذلة، أنطقه الله بها.

يقول الوليد بن المغيرة: «لقد سمعت من محمد -آنفًا- كلامًا، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلو عليه».

ومع هذا كفر الوليد بن المغيرة ومات على الكفر، ونزل بشأنه قول الله تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ [المدثر: ١١].

٣- ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر: ١٦] ما يعبِّر عن حقيقة موقفهم من هذا القرآن، وهذا ما أشارت إليه آية في كتاب تعالى، يقول رب العزة: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. أما الذين شرح الله صدورهم لهذا القرآن الكريم، فآمنوا به، ونهلوا من معينه، وأقبلوا عليه قراءة وتدبرًا وعلمًا وعملًا... إلخ فلهؤلاء تجارب مع القرآن وأحوال عبَّرت عنها ألسنتهم، وسطرتها أقلامهم، وبقيت كلماتهم نبراسًا تستضيء به الأجيال، ويحملها الرجال عبر الزمان، ومختلف الأوطان.

وقد مرَّ بنا ذكر الكثير من أقوال وأحوال هؤلاء السلف، ونورد هنا المزيد من أقوالهم وشهاداتهم بشأن هذا القرآن العظيم، سائلين الله تعالى أن ينفعنا بالعلم والعمل.

وأبدأ بأقوال القدامى:

أ) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ في شأن القرآن، وأنه سبيل النجاة من الفتن ما نصُّه: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ» مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».[١]

(١) أورد الإمام الترمذي وغيره هذا الكلام على أنه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، ولكن أكثر العلماء قالوا بضعف إسناده إلى النبي ﷺ، ولذا قال الحافظ ابن كثير في كتابه «فضائل القرآن» المطبوع مع تفسيره (ص٥): (وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح.

ب) رُوِي عن كعب الأحبار -وهو أحد التابعين رضي الله عنه- أنه قال: «عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب عهدًا بالرحمن».[1]

ج)وقال محمد بن واسع -وهو أحد التابعين-: «القرآن بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في رياض نضرة».[2]

د) يقول الإمام ابن القيم رضي الله عنه: «لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله. وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه».[3]

وقال أيضًا: «لم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن».[4]

---

(١) سنن الدارمي (ج٢ – ص٦٢٥).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

(٤) الداء والدواء (ص١٤) – طبعة ثانية سنة ١٩٨٩م – مطبعة المدني.

هـ) يقول الإمام ابن الجوزي ﷺ: «إن مواعظ القرآن تذيب الحديد، وللفهوم كل لحظة زجر جديد، وللقلوب النيرة به كل يوم وعيد، غير أن الغافل يتلوه ولا يستفيد». [١]

وأكتفي بهذا القدر من أقوال القدامى، وأتبعها ببعض أقوال المعاصرين.

يقول السيد محمد رشيد رضا ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ قُوَّةَ الدِّينِ وَكَمَالَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ لَا يَحْصُلَانِ إِلَّا بِكَثْرَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَاسْتِمَاعِهِ، مَعَ التَّدَبُّرِ بِنِيَّةِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ...

وَمَا آمَنَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ إِلَّا بِسَمَاعِهِ وَفَهْمِهِ، وَلَا فَتَحُوا الْأَقْطَارَ، وَمَصَّرُوا الْأَمْصَارَ، وَاتَّسَعَ عُمْرَانُهُمْ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُمْ، إِلَّا بِتَأْثِيرِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَانَ الْجَاحِدُونَ الْمُعَانِدُونَ مِنْ زُعَمَاءِ مَكَّةَ يُجَاهِدُونَ النَّبِيَّ وَيَصُدُّونَهُ عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ إِلَّا بِمَنْعِهِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ وَمَا ضَعُفَ الْإِسْلَامُ مُنْذُ الْقُرُونِ الْوُسْطَى حَتَّى زَالَ أَكْثَرُ مُلْكِهِ إِلَّا بِهَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوتِهِ وَالعَمَلِ بِهِ». [٢]

أ) ويقول الدكتور مصطفى السباعي ﷺ في كتابه «هكذا علمتني الحياة»: «ما رأيت شيئًا يغذِّي العقل والروح، ويحفظ الجسم، ويديم السعادة أكثر من إدامة النظر في كتاب الله تعالى». [٣]

---

(١) التبصرة (١/ ٨٢).

(٢) مختار تفسير المنار (٣/ ١٧٠).

(٣) «هكذا علمتني الحياة» (ص٨٤) – طبعة رابعة سنة ١٩٩٧م – المكتب الإسلامي.

ب) ويقول الشيخ عبد الحميد باديس رحمه الله: «فوالله الذي لا إله إلا هو ما رأيت -وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب- أعظم إلانةً للقلب، واستدرارًا للدمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث على التوبة، من تلاوة القرآن وسماعه».[1]

٤- ولا أريد الاسترسال مع هذه الأقوال حول قيمة القرآن وسموه وعلو شأنه في نظر كل من تعامل معه، سواء نظر إلى إعجازه أو أحكامه، أو قصصه أو أمثاله، أو في دعوته للأخلاق السامية، أو تحذيره من رذائلها ومنكراتها...إلخ، وصدق من قال وهو يصف القرآن:

كالبـــدر من حـيث التفـــتَّ رأيته * يهـدي إلى عينيـك نورًا ثاقبًا**

كالشمس في كبد السماء وضوؤها * يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا**

أو كما يقول آخر: «القرآن كالجوهرة، كلما قلبت فيه النظر بان لك لونًا رائقًا، وجوهرًا فائقًا».

فما أجمل أن يعيش المسلم مع القرآن، يغترف من معينه الرائق، ويشتفي بدوائه الفائق، ويتخلق بخلقه العظيم، ويسلك سبيله القويم؛ فيسعد في الدنيا بالرضوان، وفي الآخرة بأعلى درجات الجنان.

---

(١) «ليدبروا آياته» (ص ٣١) – المجموعة الأولى – طبعة ثالثة سنة ٢٠١٢م – إصدار مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية – الرياض.

(١٤) القرآن الكريم في المرتبة الأولى من المعارف والعلوم

١- تتنوع العلوم، وتتعدد أشكالها وصورها، وليس في مقدور أحد أن يحيط بأطرافها جميعًا، أو يستوعب دلالاتها وتفرعاتها.

ومن هنا كانت وصية العلماء بضرورة تقديم الأهم على المهم، والأنفع على النافع.

يقول الإمام الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما أكثر العلم وما أوسعه * من ذا الذي يقدر أن يجمعه**

إن كنت لا بد لـه طالـبًا * محـاولًا فالتـمس أنفعـه** [1]

٢- ويتفق العلماء على أن معرفة القرآن الكريم وما يتعلق به في سُلَّمِ الأولويات بالنسبة لغيره من العلوم.

يقول ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعدَّاها جملة فقد تعدَّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدَّى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومن تعدَّاه مجتهدًا زل، فأول العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهمه...إلخ». [2]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (ج١ – ص١٢٧).

(٢) المرجع السابق (ج٢ – ص٢٠٤).

ويقول الإمام النووي رحمه الله: «كان السلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلا لمن يحفظ القرآن». [1]

ويقول الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله: «ينبغي لطالب العلم أن يبدأ بحفظ كتاب الله جل جلاله، إذ كان أجلَّ العلوم، وأولاها بالسبق والتقديم». [2]

ولعلَّ الكلام هنا فيمن يريد التخصص والتفوق في العلم، وأن يكون رأسًا ومرجعًا فيه.

ويدل على ذلك ما اشترطه العلماء فيمن يتخصص في علم كالتفسير أو الحديث أو الفقه أو الأصول...إلخ. فقد اشترطوا فيمن يريد الوصول إلى ذلك أن يكون حافظًا للقرآن الكريم.

٣- وقد علَّل العلماء ذلك بأن القرآن الكريم يشتمل على مبادئ وأصول لكافة العلوم، وفي ذلك يقول الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله: «إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه هدي كل هدىً وغيٍّ، فترى كل ذي فنٍ منه يستمد، وعليه يعتمد». [3]

---

(١) المجموع شرح المهذب (ج١ – ص٦٩)، بتحقيق: محمد نجيب المطبعي – بدون تاريخ.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (ج١ – ص١٠٦) – مكتبة دار المعارف – الرياض – طبعة ١٩٨٣م – بتحقيق د/ محمود الطحان.

(٣) «الإتقان في علوم القرآن» (ج١ – ص٢) – طبعة سنة ١٩٧٣م – المكتبة الثقافية – بيروت.

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «تفكَّرْ في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين، وجملة أوائله...». [(١)]

٤- والغريب أن يدرك هذا الأمر غير العرب -ومنهم غير مسلمين- ويقرُّون بذلك، ويسجلونه بأقلامهم.

يقول الدكتور موريس الفرنسي في وصف القرآن: «إنه بمثابة ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه، ومصدر تهذيب للأخلاق والعواطف، ودائرة معارف للشرائع والقوانين، وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورة من سوره في حسن المعاني وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكًا بهذا الكتاب، واقتباسًا لآياته، يزينون بها كلامهم، ويبنون عليها آراءهم كلما ازدادوا رفعة في القدر، ونباهة في الفكر». [(٢)]

٥- ونخلص من هذا الكلام إلى أهمية أن يضع المسلمون اهتمامهم بالقرآن في سلم أولوياتهم حين يطلبون العلم، فيقدمونه على ما سواه، وهم

(١) جواهر القرآن (ص٤٧) - دار إحياء العلوم - بيروت - طبعة أولى ١٩٨٥م - تحقيق د/ محمد رشيد رضا القباني.

(٢) «التربية في كتاب الله» (ص٥) محمود عبد الوهاب فايد - الطبعة الرابعة - دار الاعتصام - بدون تاريخ.

بذلك يأمنون الزيغ، ويقفون على أرض صلبة، تحول فيما بينهم وبين التأثر بالأفكار الضالة، أو الوقوع في براثن الإلحاد.

وفي ذات الوقت يخالط القرآن الكريم قلوبهم ومشاعرهم، فيرقى بأخلاقهم، ويهذب سلوكهم، ويضمن لهم النجاح، دون شطط أو انحراف.

وبنهاية الكلام في هذه النقطة تنتهي مباحث الفصل الأول، ويليها - بمشيئة الله تعالى- مباحث الفصل الثاني.

الفصل الثاني
أوجه الانتفاع بالقرآن الكريم

ويشتمل على المباحث التالية:

١- تلاوة القرآن الكريم.

٢- الاستماع إلى القرآن، والإنصات عند تلاوته.

٣- الحرص على حفظ القرآن الكريم.

٤- الحرص على تحفيظ القرآن الكريم ونقله إلى الأجيال.

٥- تدبر آيات القرآن الكريم، والتعرف على مقاصده وأهدافه.

٦- العمل بأحكام القرآن الكريم، والتحلِّي بأخلاقه وآدابه.

المبحث الأول
تلاوة القرآن الكريم

الله ﷻ يدعونا إلى تلاوة القرآن الكريم.

١- يقول رب العزة في كتابه الكريم: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ [المزمل: ٤].

هذه الآية الكريمة هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وقد اشتملت على ما يدل على الاهتمام بهذا الأمر، وذلك عن طريق المفعول المطلق المؤكد «تَرْتِيلًا». كما اشتملت على بيان أهمية قراءة القرآن الكريم –مع قيام الليل– للإعانة على توفيق الله تعالى في تحمُّل أمانة الرسالة وعبئها الثقيل، حيث جاء بعدها مباشرة ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل: ٥] وكأنها تعليل وبيان لحكمة قيام الليل وتلاوة القرآن ودورهما في الإعانة على هذا الأمر الثقيل.

يقول رب العزة: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقد ورد هذا الأمر في سورة المزمل كذلك في آخر آية منها؛ للدلالة على مشاركة أفراد الأمة جميعهم في الاهتمام بأمر قراءة القرآن الكريم، وتكرار الأمر في الآية مرتين لضرورة الاعتناء به، والحرص عليه، كما ورد في بدء الآية ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [المزمل: ٢٠]، ثم قال بعدها مباشرة ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠] وكأنها إشارة إلى أن هذه الأعـذار -مع علم الله بها- ينبغي ألا تشغل المسلم عن تلاوة القرآن الكريم، ولو كان المقروء شيئًا يسيرًا.

يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ [النمل: ٩١-٩٢]. والأمر في الآية لرسول الله ﷺ هو أمرٌ لكل مسلم؛ حيث لم يرد تخصيصه ﷺ به دون سواه، وهكذا في كل الأوامر القرآنية.

٢- يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦]. ، وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢]. وفي هذه الآيات -وأشباهها كثير- يبين رب العزة أن من مهمات هذا النبي الكريم ﷺ أن يقرأ القرآن على مسامع الناس وينشره فيما بينهم، وبواسطة هذا القرآن الموحى به إليه -والذي هو أعظم معجزاته- ستولد أمة الإسلام والتي هي خير أمة «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

يقول رب العزة تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]. وفي هذه الآية الكريمة -وإن كانت وردت مورد الخبر لا الأمر- فإنها دعوة من الله تعالى لمن يرغبون في التجارة الرابحة مع الله تعالى أن يلتزموا بهذه الأشياء، ويحرصوا عليها، وفي مقدمتها القرآن الكريم.

يقول بعض السلف: «ثلاث تجارات لا تعرف الخسارة: تلاوة القرآن، والصلاة، والإنفاق) ثم ذكر هذه الآية.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف: ٢٧] وقال أيضًا: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال أيضًا: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وهي آيات كريمات تضاف إلى ما سبق في أهمية المحافظة على تلاوة القرآن الكريم، وعدم التهاون في هذا الشأن، وتفريغ الأوقات اللازمة له حتى يتحقق التواصل مع القرآن في حياتنا.

النبي ﷺ يحثنا على تلاوة القرآن الكريم.

وردت أحاديث عدَّة على لسان رسول الله ﷺ تحثُّ على تلاوة القرآن الكريم، منها ما هو في صورة الأمر المباشر، ومنها ما هو على سبيل الإخبار برفعة شأن قارئي القرآن الكريم، وعظم أجر تاليه.

ومن الأحاديث التي وردت في صورة الأمر المباشر ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ[1] الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[2]، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[3]، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[4]. يعني السَّحَرَةُ.

ومنها أيضًا ما ورد من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ ﷺ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهَّ فَإِنَّهَا رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ ﷺ: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ».[5]

---

(١) الزهراوين: سميت السورتين بالزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما.

(٢) غمامتان أو غيايتان: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، والمراد عظم أجرهما.

(٣) فرقان من طير صواف: جماعتان من الطير باسطة أجنحتها.

(٤) صحيح مسلم – حديث رقم (٢٥٢/ ٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٥) صحيح ابن حبان – حديث رقم (٣٦٢).

والأحاديث الأخرى التي وردت على سبيل الإخبار برفعة شأن قارئي القرآن كثيرة ومتعددة، ومنها:

أ) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: {الم} حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ». (١)

ب) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ فَلَهُ أَجْرَانِ». (٢)

ج)عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ». (٣) وقد مرَّ بنا ذكر هذا الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وقال عنه: حديث حسن صحيح - حديث رقم (٢٩١٠).

(٢) صحيح مسلم - حديث رقم (٢٤٤ / ٧٩٨).

(٣) اخرجه البخاري - حديث رقم (٥٤٢٧)، وأخرجه مسلم - حديث رقم (٢٤٣ / ٧٩٧).

د) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا». [1]

وهناك أحاديث أخرى غير هذه سنأتي عليها بمشيئة الله تعالى في ثنايا البحث.

من كلمات السلف الصالح في الحث على تلاوة القرآن الكريم ،وبيان فضلها.

أ) عن الحميدي قال: سألت سفيان الثوري عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن؟ -وفي رواية أخرى «يُقْرِئُ القرآن»، فقال: من يقرأ القرآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ». [2]

ب) يقول الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يُعْتَمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار». [3]

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، حديث رقم (٢٩١٤)، وأخرجه أيضًا من أصحاب السنن أبو داود والنسائي.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠) –الإمام النووي، وانظر (فتح الباري) للإمام ابن حجر العسقلاني (ج ١٩ – ص ٩٢) – طبعة سنة ١٩٧٨ – مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١).

ج)يقول أحد الصالحين: «ما رأيت أحدًا تعلَّق بالقرآن مخلصًا إلا أعطي هيبة ومحبة في قلوب الخلق، مع سعة في الرزق والعقل، وبركة في العمر، وطيب العشرة، وحسن الخلق».

د) وقال آخر: «القرآن هو الوحيد الذي يصحبك طول رحلتك إلى الله، فبقدر ما توسِّع للقرآن في قلبك متكئًا يوسِّع الله لك الحياة».

هـ)ويقول ثالث: «ليس بينك وبين القرآن لقاء أخير إن أحسنت صحبته، فهو معك فوق الأرض، وتحت الأرض، ويوم العرض».

و) ويقول الدكتور عبد العزيز الشايع –حفظه الله-: «صاحب القرآن يحفظه القرآن قبل أن يحفظ القرآن».

ويقول أيضًا: «من جاهد نفسه على الدوام أن يفتح يومه بالقرآن –وإن قلَّ- فهو سائر في طريق الموفقين وأهل الله وخاصته، وينبغي أن يلزم نفسه بذلك كما يلزمها بالدواء الذي فيه شفاء وعافية، ولا يخاف الضيعة فإن الله لا يضيع أهله».

ز) ويقول الدكتور أحمد المعصراوي –حفظه الله-: «النفس إن كانت ضعيفة فقوِّها بالقرآن، وإن كانت قوية فثبتها بالقرآن، وإن كانت حزينة فسلِّها بالقرآن. القرآن كله رحمة».

وخلاصة ما أشار إليه سلف الأمة الصالح من القدامى والمعاصرين تؤكد على أهمية ارتباط المسلم بهذا القرآن الكريم في كل يوم، بحيث لا يمرُّ يوم دون تلاوته والنظر فيه ولو كان قليلًا.

يقول الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «إني لأستحي ألَّا أنظر كل يوم في عهد ربي مرَّة». [١]

ولئن كان إهمال المريض في تعاطي الدواء يعرِّض بدنه للتلف، ويصيب جسده بالوهن؛ فإن إعراض المرء عن تلاوة القرآن في يومه وليلته يعرِّضه لمرض قلبه وسوء حاله؛ ولذا قيل: «كلما ابتعد المسلم عن القرآن تشوهت شخصيته دون أن يشعر»، وقيل أيضًا: «غيابك عن قراءة القرآن هو غياب لربيع جميل يحتاج له قلبك، خصوصًا عندما يعتريه خريف الأحزان وشؤم المعصية».

وقال الشاعر:

قل للذي هجر الكتاب وما تلا * في يومه وردًا من القرآن**

أتراك تبصر للسعادة موضعًا * أم تاه قلبك في دجى الأحزان**

فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

---

(١) تفسير القرطبي (ج ١ – ص ٢٤).

بعض الأحكام
المتعلقة بتلاوة القرآن الكريم

أ) أفضلية قراءة القرآن بين الغيب والنظر في المصحف.

اختلف العلماء في قراءة القرآن الكريم، هل الأفضل أن تكون غيبًا أم نظرًا في المصحف؟

وقد رجَّح البعض القراءة من المصحف باعتبار النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فيجتمع فضلها مع فضل القراءة، وفصَّل آخرون في المسألة، فقالوا: «إن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان خشوعه وتدبره أكثر عند قراءته من المصحف فهي أفضل بالنسبة له، ومن كان بقراءته غيبًا يكون خشوعه وحضور قلبه أكثر فهي أفضل بالنسبة له، فإن استويا فالقراءة من المصحف حينئذ أفضل». [(١)]

وأرى -والله أعلم- أن القراءة غيبًا لها ميزة لا تتوافر لمن يقرأ في المصحف، فهي متاحة في جميع الأوقات وتحت كافة الظروف، بعكس من يقرأ من المصحف دون إمكان الاستغناء عنه، وأيضًا القراءة غيبًا تثبِّت حفظ القرآن الكريم، وتجعله في متناول من يريد قراءته أو الاستشهاد بآياته.

---

(١) انظر (التبيان في آداب حملة القرآن) ص٥٥.

وكذلك يلاحظ أن تدبر الآية وهي محفوظة وترديدها أكثر من مرة - تحصيلًا للخشوع -أفضل من تكرارها نظرًا، لأن أثرها يبقى ويستمر، في حين أن قراءتها من المصحف تنهي أثرها بمجرد إغلاق المصحف. (١)

ولذا فإني أشجع من يحفظ القرآن كله أو شيئًا منه وأراد قراءته أن يقرأ غيبًا، وأن يكون المصحف إلى جواره فإذا أُشْكِلَ عليه شيء نظر في المصحف، وأن يجتهد أثناء قراءته في استحضار الخشوع والتدبر في الآيات التي يقرأها. والله أعلم.

ب) أفضلية القراءة بين الجهر والإسرار.

اختلف العلماء في قراءة القرآن الكريم، هل تكون سرًّا أفضل أم تكون جهرًا؟

والتحقيق أن الجهر بالقراءة بحيث يُسْمعُ نفسه، ويمكن لمن قرب منه أن يسمع قراءته هذا هو الأفضل، بحيث لا يرفع صوته بدرجة ترهقه، وتؤذي من يستمع إليه، ولا يُسِرُّ بدرجة تجعله كأنه لا يقرأ.

ولرفع الصوت عند تلاوة القرآن بالشكل المشار إليه تتحقق فوائد عدة.

أولًا: أن الجهر بالقراءة أعون على التركيز والانتباه، وتنال منه الأذن حظها بالاستماع، كما ينال اللسان حظه من القراءة، وفي هذا يقول الإمام

(١) انظر (مفاتح تدبر القرآن، والنجاح في الحياة) ص٥٨ – د/ خالد عبد الكريم اللاحم.

الشعبي ﵀: «إذا قرأت القرآن فاقرأه قراءة تُسْمعُ أذنيك، ويفقه قلبك، فإن الأذن عدل بين اللسان والقلب». [1]

وقد يستمع إلى هذه القراءة آخرون فيتعدَّى النفع إليهم، وهو حينئذ أفضل من اقتصار الأجر على القراءة.

ثانيًا: أن القراءة بصوت مسموع تعين على حفظ الآيات الكريمات، وتثبتها في القلب بعكس الاقتصار على تحريك اللسان أو الاكتفاء بالنظر؛ ولذا قيل: «إذا أردت الرواية فانظر إليها، واجهر بها، فإنه يكون لك ما أدَّى بصرك إلى قلبك، وما أدَّى سمعك إلى قلبك». [2]

ثالثًا: وردت روايات في السنة تؤكد على استحباب رفع الصوت بالقرآن وتحسين تلاوته، وأن ذلك يقع من الله تعالى موقع الرضا؛ ففي الحديث: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ». [3]

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص ٤٢٢) – رقم (١١٩٧) – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع (ج ٢ – ص ٢٦٦) – الحافظ الخطيب البغدادي – طبعة سنة ١٩٨٣ – مكتبة المعارف بالرياض.

(٣) أخرجه البخاري – حديث رقم (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم، واللفظ له، حديث رقم (٢٣٣/ ٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

رابعًا: ثبت في السنة أن الملائكة الموكَّلة بسماع الذكر تنصت لقراءة القرآن، وتنزل على المكان الذي يُتلى فيه، والبيت الذي يُقرأ فيه القرآن يكثر خيره، ويقلُّ شرُّه، ويتسع على أهله، وتفرُّ منه الشياطين.

وتبقى الإشارة إلى أن رفع الصوت بالقرآن مندوب إليه شريطة ألا يجهر إلى جانب أناس يصلون فيشوش عليهم ويفسد صلاتهم، كما يُفضَّل الإسرار بالقراءة في حالة ما لو خاف الإنسان على نفسه من الرياء والعجب، وهو يتوافق مع الجمع بين الأدلة الواردة بهذا الشأن.

وفي إطار الحديث عن الإسرار والجهر بالتلاوة إذا كان يسمعها الآخرون وما يتعلق بها من أحكام، يحسن أن أنبه إلى ضرورة ألا يتحدث المرء أمام الآخرين بما قرأه من القرآن أو حفظه، ما لم تدع إلى ذلك ضرورة، وهذا أدعى إلى إخلاص العمل، والبعد عن الرياء والسمعة.

جاء في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» [1] عن أبي العالية قال: «كنت جالسًا مع أصحاب رسول الله ﷺ و﷪، فقال رجل منهم: «قرأت الليلة كذا»، فقالوا: «هذا حظك منه». وينسحب هذا على كافة الأعمال، ما لم تكن ثمَّة ضرورة لإظهارها كالاقتداء بفاعل الطاعة، ودلالة الناس عليها، وإلا بقي الإسرار بالأعمال أفضل.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦).

ج) **استحباب أن تكون القراءة مرتلة.**

يستحب عند تلاوة القرآن أن تكون القراءة مرتلة؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ [المزمل: ٤]، وقد رري عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الترتيل بأنه: «تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف».

والقراءة ترتيلًا أفضل من القراءة بسرعة، وإن كانت القراءة مع الإسراع أكثر، وذلك لعدة اعتبارات:

أولًا: أن هذه التلاوة المرتلة أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال، وقد قال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «يا ابن آدم؛ كيف يرق قلبك، وإنما همتك آخر السورة».

ثانيًا: أن الأحكام التي تضبط قراءة الإنسان للقرآن الكريم، والتي اصطلح على تسميتها بأحكام التجويد تؤكد على أن لقراءة القرآن طريقة خاصة بها لا تنسحب على سائر الكلام كالأحاديث والخطب مثلًا، ومراعاتها تحسِّن أداء القارئ، وتزيد القرآن حلاوة، وقد قال الإمام الجزري رحمه الله:

وَالأَخْذُ بِالتَّجْوِيدِ حَتْمٌ لازِمُ ... مَنْ لَمْ يُجَوِّدِ الْقُرآنَ آثِمُ [١]

---

(١) تجويد القرآن الكريم يستلزم ألا يكون في القراءة أخطاء أو لحن.

وقد قسم العلماء اللحن في كتاب الله تعالى إلى قسمين: جلي، وخفي، والمقصود باللحن الجلي ما يتعلق بنطق الحرف على غير ما هو عليه من ضم أو فتح أو كسر أو سكون أو غير ذلك؛ مما يؤدي إلى تغيير المعنى واضطراب اللفظ، وهذا باتفاق العلماء حرام، ولا تجوز قراءة القرآن الكريم إلا بخلوها من اللحن الجلي =

لأَنَّهُ بِـــهِ الإلَــــهُ أَنْـــزَلاَ ... وَهَكَذَا مِنْهُ إلَيْنَا وَصَلاَ
وَهُـوَ أَيْضًـا حِلْيَــــةُ التِّلاَوَةِ ... وَزِيْنَةُ الأَدَاءِ وَالْقِـرَاءَةِ

ثالثًا: أن القراءة المرتلة أقرب إلى هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، وهي المحققة لمقاصد القرآن من التدبر، والتفاعل مع الآيات المقروءة بما يحقق الانتفاع بها، وقد ورد في هذا عن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة. فافتتح البقرة. فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة. فمضى.

فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها. ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلًا. إذا مر بآية فيها تسبيح سبح. وإذا مر بسؤال سأل. وإذا مر بتعوذ تعوذ. (١)

- وعن أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. (٢).

= وأما اللحن الخفي فهو ما لا يدركه إلا الدارسون لأحكام القرآن الكريم كأحكام المد والتفخيم والترقيق، وغير ذلك.

ومراعاة هذه الأحكام -بحيث تخلو من اللحن الخفي- تعطي للقارئ فضلًا وتميزًا عمَّن سواه، ومن خلت قراءته من هذه الأحكام خالف الأولى، ولكنه لا يأثم، بل يؤجر على هذه القراءة، وإن كان أقل منزلة ممَّن عرف الأحكام وطبقها.

(١) أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - حديث رقم (٢٠٣ / ٧٧٢).

(٢) أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - حديث رقم (١١٨ / ٧٣٣).

أي بترتيله للسورة يأخذ مدة أطول في قراءتها مما لو قرأ سورة أخرى أطول منها بغير ترتيل.

- وسئل أنس ﷺ فقيل له: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال كانت مدًّا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم.[1]

وقد فُسِّر المد في هذ الحديث بأنه تحقيق القراءة، وتجويد الألفاظ، وإخراج الحروف من مخارجها، وإعطائها كل حق لها، وليس المد المصطلح عليه في أحكام التجويد، فإن لفظ الجلالة ولفظ الرحمن في البسملة لا يمد أكثر من حركتين كما هو الشأن في أي مد طبيعي.

وحرص النبي ﷺ على أن ينقل الاهتمام بترتيل القرآن الكريم إلى أصحابه، ففي الحديث أن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ كان يُقرئ رجلًا، فقرأ الرجل ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠] مرسلة «يعنى لم يمد كلمة الفقراء» فقال له سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ فقال: وكيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ قال أقرأنيها ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠] فمدها[2].

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب فضائل القرآن – حديث رقم (٥٠٤٦).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (جـ١ – ص ١٥٥) وقال عنه: رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

رابعًا: أن الكثير من الصحابة لم يستحسن القراءة السريعة المسماة بالهذرمة، والتي لا تُراعَى فيها أحكام التلاوة، وورد على ألسنتهم ذمُّ فاعليها.

– فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال لرجل يقال له نهيك بن سنان أخبره بأنه يقرأ المفصَّل في ركعة، فقال له عبد الله بن مسعود: هذا كهذِّ الشعر، إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع. (١)

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إنى رجل في قراءتي وكلامي عجلة، فقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة أرتلها أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله. (٢)

وورد عنه أيضًا قوله: «لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا». (٣)

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رجلًا يقرأ يهذُّ القرآن هذًّا «يعنى يقرأه بسرعة» فقالت: ما قرأ هذا وما سكت. (٤)

وعليه فإن قراءة القرآن الكريم بترتيل وتؤدة أفضل للمعاني المشار إليها.

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – حديث رقم (٢٧٥ / ٨٢٢).

(٢) كتاب الزهد لابن المبارك (ص ٤٢٠).

(٣) إحياء علوم الدين (ص ٣ – ص ٥٠٢).

(٤) الزهد لابن المبارك (ص ٤٢٢).

فإن اختار القارئ الحدْر في القراءة مع مراعاة الأحكام فهو جائز، ولكنه - وإن حصَّل ثوابًا أكبر على قراءته أكثر - فإنه قد فاته مقاصد أخرى لا بد من مراعاتها من التدبر والتأمل في الآيات والاعتبار بها، وهذه لا يقل ثوابها بل يزيد عن مجرد القراءة الكثيرة.

وننوه هنا إلى أن مقام التعليم والحفظ يُغْتَفَر فيه ما لا يغتفر في غيره، فقد يحتاج المرء لتثبيت وحفظ الآيات أن يكررها عشرات المرات فيسرع، فلا بأس حينئذ حتى لا يصيبه الملل وينصرف عن الحفظ، كما يمكن أن يبطئ المعلم من قراءته على نحو ما يحدث في المصحف المعلم -ليتمكن الدارسون من متابعته والترديد خلفه- وهذا كله لا بأس به وصولًا إلى ربط الأمة بالقرآن الكريم، وتيسير الوصول إليه، وتعظيم الفائدة منه.

د) <u>استحباب تحسين الصوت بالقرآن وحكم القراءة بالألحان:</u>

سبقت الإشارة إلى أن لقراءة القرآن الكريم طريقة خاصة لا تنسحب على سائر الكلام كالخطب والأحاديث وغيرهما.

وقد اختار الله تعالى - حين أمر بقراءة القرآن الكريم- أن يكون أداؤها بترتيل فقال: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل: ٤].

ولكي يتحقق هذا الغرض وضع العلماء قواعد تضبط هذه التلاوة وتعين على تحسينها وتجويدها.

ووصولًا إلى التفاعل مع القرآن الكريم وتحقيق التأثر به والتأثير فيمن يستمع إليه رغَّبنا الإسلام في تحسين الصوت والتغني به عند أدائه.

- وقد وردت عدة أحاديث تتعلق بهذا الأمر وتحث عليه، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

١- عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به». [1]

٢- مدح النبي ﷺ صحابيًا جليلًا هو سيدنا أبو موسى الأشعري بحسن صوته عند تلاوة القرآن، وقال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». [2]

٣- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ [التين: ١] فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه. [3]

٤- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم». [4]

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ له - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - حديث رقم (٢٣٣/ ٧٩٢) وأخرجه البخاري بنحوه - كتاب فضائل القرآن - حديث رقم (٥٠٢٣).

(٢) أخرجه البخاري - كتاب فضائل القرآن - حديث رقم (٥٠٤٨) / وأخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - حديث رقم (٢٣٥ / ٧٩٣).

(٣) أخرجه البخاري - كتاب فضائل القرآن - حديث رقم (٧٥٤٦).

(٤) أخرجه النسائي - حديث رقم (١٠١٥) وأخرجه ابن ماجه - حديث رقم (١٣٤٢)

٥- وعن أبى هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» - وزاد غيره «يجهر به». [١]

وقد فُسِّر التغني في هذا الحديث بمعنى تحسين الصوت به عند تلاوته، أو بمعنى الاستغناء به عما سواه، ولا مانع من إرادة المعنيين معًا.

ومن هذه الأدلة وغيرها يتضح لنا أن تحسين الصوت عند تلاوة القرآن أمر مندوب إليه، ومُرَغَّبٌ فيه، وعلى المرء أن يجتهد في تحقيق ذلك ما استطاع.

قيل لابن أبى مليكة: أرأيت إذا لم يكن «أي القارئ» حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع. [٢]

ولا يختلف اثنان في أن الصوت الحسن هبة من الله تعالى، ونعمة تذكر لله تعالى فتشكر، وأن الإنسان إذا استثمرها في تلاوة القرآن الكريم أعانته على تدبر القرآن الكريم، وحققت الخشوع والخضوع المطلوب عند قراءته، وإذا كان هناك من يستمع إليه تأثر به، ورغب في أن يستمع إلى المزيد من قراءته دون ملل.

وهذا هو المستهدف من تحسين الصوت عند تلاوة القرآن، وصدق الله إذ يقول: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ

وصححه الألباني في تعليقاته على سنن النسائي.

(١) أخرجه البخاري - كتاب التوحيد - حديث رقم (٧٥٢٧).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٣) الإمام النووي.

رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت القراءة بالصوت الجميل طبعًا وسليقة، وخلت من التكلف الذي يخرج بالقراءة إلى أن يتحول الأداء إلى غناء، وساعتئذٍ ينصبُّ اهتمام القارئ على تجويد الصوت، وتنصرف همة المستمعين إليه على الألحان الموسيقية كما هو شأن المطربين، وإعجابًا بصوته يطلبون منه أن يعيد ما قرأ، حتى ولو كانت الآيات تتعلق بذكر النار أو الهلاك أو نحو ذلك.

وقد بين العلماء خطورة هذا الأمر وتحدثوا عنه، وبينوا حكم القراءة بالألحان والمقامات الموسيقية، وحذروا من ذلك.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله -بعد أن ساق الأحاديث المرغبة في تحسين الصوت بالقرآن-: «والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والقانون الموسيقاني فالقرآن ينزه عن هذا، ويَجِلُّ ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك». (١)

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (ص٣٦).

ومما يؤسي ويؤسف أن البعض احترف مهنة القراءة للقرآن الكريم في المحافل ومناسبات العزاء، وصارت بالنسبة لهم مصدرًا للارتزاق وكسب الأموال، بحيث يقرأ الشخص القرآن لا للتعبد به وطلب الثواب من الله عليه، ولكن طمعًا في أجر عاجل يحصل عليه، وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ في الحديث الذي أورده عنه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا الأعرابي والعجمي فقال: «اقرأوا فكل حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه». [1]

وقوله: «يقيمونه كما يقام القدح» أي يهتمون بإصلاح ألفاظه وكلماته كما يقام القدح، وهو السهم الذي يقام ليس فيه اعوجاج.

وقوله «يتعجلونه ولا يتأجلونه» أي أن همهم الدنيا من تحصيل مال أو شهرة، وليس تحصيل الثواب في الآخرة.

ومن هنا حذر العلماء الربانيون من هذه الظاهرة التي تخرج بالقرآن الكريم عن هدفه الذي لأجله نزل، وتحدثوا عن ضرورة التصدي لها؛ حفاظًا على حرمة القرآن الكريم وقدسيته.

يقول الإمام النووى رحمه الله – «القرآن بالألحان المحرمة مصيبة ابتلي بها بعض الجهلة الطغام الغشمة، الذين يقرأون على الجنائز وبعض المحافل،

(١) سنن أبي داود – حديث رقم (٨٣٠)، وصححه الألباني.

وهذه بدعة محرمة ظاهرة يأثم كل مستمع لها، ويأثم كل قادر على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك». [١]

٥) أحكام أخرى مجملة تتعلق بتلاوة القرآن الكريم تكثر الحاجة إليها:

١) تجوز قراءة القرآن الكريم بالقراءات المتواترة في الصلاة أو غيرها، وعلى من يختار قراءة أن يستمر عليها حتى تنتهي قراءته بها في مجلسه أو صلاته.

وأرى أن يلتزم أئمة المساجد بالقراءة التي يعرفها الناس في المكان الذي يُصَلَّي فيه، خشية أن تلتبس الأمور على العامة إذا سمعوا قارئًا يتلو عليهم في صلاته ما لم يعهدوه.

٢) الأفضل في قراءة القرآن الكريم أن يكون وفق ترتيب المصحف، سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارجها [٢] بحيث لا يأتي بسورة عكس ترتيب المصحف -كأن يقرأ الضحى ثم يقرأ الليل أو الشمس مثلًا- ويستثنى من ذلك تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله، لما في ذلك من تيسير حفظهم للقرآن الكريم بالبدء بما هو أسهل.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص ٦٣) الإمام النووي، بتصرف يسير.

(٢) لو حدث أن قارئًا قرأ سورة ثم جاء بعد بما يسبقها في الترتيب -سواء كان في الصلاة أو خارجها- لا يعد مرتكبًا إثمًا ولكنه خالف الأولى. وقد وردت روايات في السنة تفيد فعل ذلك كما حدث مع النبي ﷺ في قيام الليل حين قرأ سورة النساء قبل سورة آل عمران، وهذا دليل على جواز فعل ذلك، وإن كان الأولى مراعاة الترتيب كما هو شأن النبي ﷺ في كل ما ورد عنه من قراءة في الصلاة – خلاف هذا الموقف – وقد راعى في جميعها ترتيب المصحف

وعلى القارئ أن يستفتح قراءته بالاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ تنفيذًا لتوجيهات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨] .

٣)على قارئ القرآن الكريم أن يراعى ترابط معاني القرآن الكريم ببعضها، بحيث يبدأ أو ينتهي عند كلام مترابط ببعضه، ولا يلتفت إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع؛ فهذه التقسيمات في مواضع كثيرة لا تهتم بالترابط الموضوعي بين الآيات، بل تجد –كثيرًا– الكلام في جزء أو حزب وبقيته في الذي يليه مثل ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٢٤] أول الجزء الرابع، وهو تكملة للآية التي قبلها في بيان المحرمات من النساء، ومثل «فما كان جواب قومه» أول الجزء العشرين وهي مترابطة بالآيات التي قبلها في قصة لوط عليه السلام، وهكذا.

٤)لا تجوز قراءة القرآن الكريم في الركوع أو السجود، ولا بأس بأدعية القرآن الكريم في السجود إذا قُصد بها الدعاء وليس القرآن.

٥)لا بأس بقراءة القرآن الكريم حال المشي أو الاضطجاع على الفراش شريطة ألا يلتهي عن القراءة بغيرها، وإن كان من الأفضل الجلوس مع استقبال القبلة.

٦)يستحب لقارئ القرآن الكريم أن يكون على طهارة كاملة إذا كان يقرأ وردًا، سواء كان يقرأ من المصحف أو عن ظهر قلب، فإن انتقض وضوؤه

جاز له القراءة دون أن يمس المصحف، ويستثنى من ذلك من يقرأ ليحفظ فإنه -مع حاجته المستمرة لمسِّ المصحف- يشق عليه الوضوء.

٧)يحرم على الجنب أن يقرأ شيئًا من القرآن حتى يغتسل، ويستثنى من ذلك ما يردده على سبيل الذكر، كدعاء ركوب الدابة أو قوله ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ ﴾ [البقرة: ١٥٦] عند نزول مصيبة.

٨)اختلف العلماء في قراءة الحائض للقرآن الكريم فمنعها البعض، وأجازها آخرون. والراجح -والله أعلم- جواز قراءتها للقرآن الكريم، لأن مسألة الحيض تطيل أيام انقطاعها عن القرآن الكريم مما يعرِّضه للنسيان، وحيض المرأة لا ذنب لها فيه، ولا تستطيع الخروج منه بإرادتها، وذلك عكس الجنب، والذي يمكنه الاغتسال ورفع الجنابة متى شاء.

ولكن على الحائض إذا أرادت قراءة القرآن الكريم أن تبتعد عن مس المصحف بيدها، فتقرأ عن ظهر قلب، أو تقرأ من الموبايل، أو من كتاب تفسير، بحيث يغلب على الكتاب التفسير، وإن كان النص القرآني موجودًا.

وهناك رأي آخر يجيز المس للمصحف للحائض وغيرها إذا كان هناك حائل بين المصحف وبين من تحمله.

٩)على قارئ القرآن الكريم أن يمتنع عما يلهيه عن القراءة أو يقطعه عنها، وأن يتجنب العبث والضحك وسائر الملهيات، وأن يقبل على القرآن الكريم بكليته ليتمكن من الانتفاع بأنواره وهداياته.

أخرج البخارى في صحيحه عن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه. (١)

١٠) يستحب لقارئ القرآن إذا سمع الأذان أن يقطع قراءته ويردد كلمات الأذان، وإذا سلَّم عليه أحد، أو مرَّ في طريقه بأحد جاز له رد السلام وإلقاؤه، ثم يستعيذ ويستأنف القراءة.

١١) تستحب تلاوة القرآن الكريم في جميع الأوقات، وأفضلها ما كان في الصلاة، وأفضل أوقاتها ما كان في الليل.

١٢) ينبغي على قارئ القرآن الكريم أن يحدد لنفسه وردًا يلتزم به؛ بحيث يختم القرآن قراءة من بدايته إلى نهايته، ثم يعاود الكرَّة مرة أخرى، شريطة أن يستقيم على ما حدده لنفسه وإن كان قليلًا.

وللعلماء كلام كثير فيما ينبغي ختم القرآن الكريم فيه من الزمان، ويختلف ذلك باختلاف أحوال كل شخص وظروفه، وقد جمعها بعض المؤلفين في عبارات بليغة وموجزة فقال: قراءة القرآن مثل العلاج لا بد أن يحدد بزمن معين لا يزيد عنه ولا ينقص حتى يحدث أثره، مثل المضاد الحيوي، إن طالت المدة ضعف أثره، وإن تقارب أكثر من المناسب أضر بالبدن، فكذلك قراءة القرآن.

(١) أخرجه البخاري – كتاب تفسير القرآن – حديث رقم (٤٥٢٦).

والمدة التي أقرها النبي ﷺ لأمته لمن رغب في الخير هي سبعة أيام إلى الشهر، ونهى عن أقل من ثلاث، وجاءت نصوص في النهي عن هجر القرآن أكثر من أربعين يومًا. (١)

وربما كانت تلاوة القرآن الكريم في بداية التعود عليها صعبة نسبيًا، ولكن مع الاستمرار عليها سيشعر المرء بلذة تجعله يطلب بنفسه المزيد مما يقرأه منه.

فضلًا عن أن المداومة على تلاوة القرآن دون انقطاع تربط الإنسان بخالقه، وتجعل القرآن دستورًا يعيش فيه مع توجيهاته فلا يضل ولا يزِلُّ، وإن كثرت الشبهات والشهوات حوله ففي كتاب الله تعالى عاصم له منها ونور يهتدي به في ظلماته.

١٣) وإلى جانب التوجيهات المشار إليها سابقًا ومعظمها يتعلق بجوانب ظاهرية يبقى أن يتصف قارئ القرآن الكريم بالإخلاص والتجرد وابتغاء الهدى منه، وإخلاص النية في التعامل معه.

جاء في كتاب «مفاتيح للتعامل مع القرآن» ما نصه: «إن القرآن كالمطر فكما أن المطر لا يؤثر في الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلا التربة المهيئة،

---

(١) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (ص ٥٤) د/ خالد بن عبد الكريم اللاحم.

فكذلك القرآن لا بد أن ينزل على بيئة صالحة ليتفاعل معها ويتأثر بها ويحيا من خلالها، وهذه البيئة هي الحواس والقلوب التي تقبل عليه». (١)

وفى النقطة التالية مزيد بيان لهذ الأمر.

و) النوايا الحسان في تلاوة آي القرآن:

علمتنا سنة الحبيب المصطفى ﷺ ضرورة استصحاب النية الحسنة في كل ما نقوم به من عمل، وبينت أن قيمة العمل تعظم بقدر عظمة النية التي ترافقه.

فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». (٢)

ويُعَدُّ هذا الحديث من أمهات الأحاديث التي تبنى عليها كل تعاليم الإسلام.

ولذا افتتح به إمام المحدثين الإمام البخاري كتابه في الحديث، وسار على دربه كثير من العلماء في مصنفاتهم وكتبهم.

---

(١) مفاتح للتعامل مع القرآن (ص ٥٢) د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي.

(٢) رواه البخاري – حديث رقم (١)، ورواه مسلم – حديث رقم (١٩٠٧) مع اختلاف يسير.

وإذا كانت تلاوة القرآن الكريم من أفضل الأعمال فإن من الواجب تحرير النية عند تلاوته، بحيث تتناسب مع جلال وعظمة هذا القرآن، وأن يستهدف المسلم بها نوايا عدة، حتى يعظم الأجر، ولا يقتصر فقط على مجرد تحصيل الثواب أو المراجعة لتثبيت الحفظ دون غيره، فهذا -إن حدث- يعد ظلمًا من الإنسان لنفسه، وتقصيرًا يضيِّع عليه الكثير من الحسنات والدرجات.

ولقد أعجبتني كلمة سمعتها من أحد الدعاة يقول فيها: «المسلمون تجار نوايا» ويعني بها أن العمل الواحد يمكن أن تتحقق به عدة أهداف، ويحصل بهذا مزيد من الحسنات، مثلًا من يصلي قيام الليل ينوي به إحياء السنة والسير على درب السلف الصالح من عباد الرحمن، ومناجاة الخالق في أوقات التجليات، وإخلاص العمل بإخفائه عن الناس، والتوسل به لإضاءة ظلمة القبر، ونضرة الوجه، وشرح الصدر، وسعة الرزق، وقوة البدن، والبعد عن الحرام...إلخ. وهذا كله في عبادة واحدة، وهكذا سائر العبادات، بل والعادات.

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم فالأمر فيه أوسع، ويمكن الانطلاق من الآيات والأحاديث الواردة في فضل القرآن الكريم ليكون كل حديث منها منطلقًا لنية نقصدها عند تلاوة القرآن الكريم.

فمثلًا نحن نقرأ القرآن بنية أن نكون من أهل الله وخاصته، وبنية التزود من مأدبة الله تعالى في الأرض، وبنية الإكثار من الحسنات، وبنية استنزال

السكينة وغشيان الرحمة وتنزل الملائكة وذكر الله لنا في الملأ الأعلى، ونقرأ القرآن بنية الاهتداء به، والسير في أنواره، والتأدب بآدابه، وليكون بيني وبين الشياطين من الإنس والجن حجاب، ونقرأ القرآن لنكون مع السفرة الكرام البررة إذا كنا ماهرين به، ونقرأ القرآن لنرتقي به في درجات الجنان، ولينعم الله على والدينا بُحلل تفوق الدنيا وما فيها، ونقرأ القرآن لننال شفاعته يوم القيامة... إلخ هذه المقاصد والنوايا التي تجعل لتلاوة القرآن الكريم بعدًا أو أكثر من مجرد القراءة لتحصيل الثواب.

ولكي يصل المسلم إلى تحقيق هذه النوايا كلها يلزمه أن يفتح قلبه لهذا القرآن، ويستحضر ساعة قراءته أنه في معية الله تعالى فلا يلتفت عنه إلى غيره.

عن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: سألت سفيان الثورى رحمه الله قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: «ينوي أنه يناجي ربه» (١)

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسول الله ﷺ. (٢)

---

(١) كتاب الصلاة (جـ ١ – ص ٥٢) – الإمام محمد بن نصر المروزي – دار الكتب العلمية – بيروت – بتحقيق الدكتور مصطفى عثمان صميدة.

(٢) الفوائد (ص ٥) ابن قيم الجوزية – طبعة ثالثة ١٩٧٦م – مكتبة الجامعة.

ويقول المفكر الإسلامى محمد إقبال رحمه الله: قد كنت تعمدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم وكان أبي يراني فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: مالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعك ذلك من إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدي اقرأ القرآن كأنما نزل عليك.

قال محمد إقبال: ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأُقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن درره ما نظمت. (١)

ولو أقبل المسلم على القرآن بمثل هذه الروح التي تحدث عنها العلماء الربانيون فلن يجد غنى عن القرآن وعن التعلق به آناء الليل وآناء النهار.

اللهم اجمع القرآن في قلوبنا حفظًا، وعلى ألسنتنا تلاوة، وفي سلوكنا خلقًا.

اللهم اشرح به صدورنا ، ونور به قلوبنا ، وآنس به وحدتنا ، واجعله شفيعًا لنا يوم نلقاك.

اللهم اجعله لنا في القبر مؤنسًا ، وعلى الصراط نورًا ، وإلى الخيرات كلها دليلاً

اللهم ألبسنا به الحلل ، وأسكنّا به الظلل ، وادفع عنا به النقم ،واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين ، وعند النعماء من الشاكرين.

(١) روائع إقبال (ص ٤٢) أبو الحسن الندوي.

المبحث الثاني
الاستماع إلى القرآن والإنصات عند تلاوته

١- ورد الأمر في كتاب الله تعالى بضرورة الاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقد استنبط أحد العلماء من تذييل الآية بقوله تعالى: «لعلكم ترحمون» أن الاستماع إلى القرآن مع الإنصات له موجب -بنص القرآن- لنزول الرحمة، ورجاء حصولها لمن يستمع وينصت إليه.

يقول الإمام الليث بن سعد رحمه الله: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ولعل من الله واجبة.

علق بعض العلماء على هذا الأثر فقال: هذا السامع فما بالكم بالقارئ؟ فما بالكم بالحافظ؟ فما بالكم بالمتدبر؟ فما بالكم بالمعلم؟ فما بالكم بالعامل؟ هم درجات عند الله.

٢- والاستماع إلى القرآن الكريم هدف مقصود وينبغي أن يحرص عليه من يجيد قراءته ومن لا يجيدها، ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام أسوة حسنة.

فقد روى الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «فإني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء، حتى إذا جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن»، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان. (١)

وورد عن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري ﷺ: «ذكِّرْنا ربنا فيقرأ عنده القرآن». (٢)

ويشير الإمام النووي رحمه الله إلى أن كثيرًا من سلف الأمة الصالح كانوا يحرصون على استماع القرآن، ويطلبون ممن يحسنون تلاوته أن يقرأه عليهم فيقول: أعلم أن جماعة من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون، وهذ متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ. (٣)

---

(١) أخرجه البخاري – حديث رقم (٤٥٨٢)، وأخرجه مسلم – حديث رقم (٨٠٠).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٦٤).

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

٣- وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أدلة على أن استماع القرآن أمر مقصود ينبغي حرص كل مسلم عليه ننظر إلى القراءة في الصلاة، حيث نجد في الصلاة الجهرية أن الإمام يقرأ، وَمَنْ خلفه من المصلين يجب استماعهم إليه، وعدم منازعتهم له في القراءة، بل يقرأ وحده، ولا يقرأون خلفه سوى الفاتحة فقط.

٤- وقد أثنى الله تعالى في كتابه على من استمع إلى القرآن فأنصت إليه، وساق الحديث عنهم مساق المدح والثناء على صنيعهم، فقال في حق فريق من الجن حضر مجلس رسول الله وهو يقرأ القرآن:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]، كما أثنى على طائفة من النصارى سمعوا القرآن فتفاعلوا معه وتأثروا: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾». وأثنى ربنا على أهل الإيمان عامة فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

٥-وقد تحدث الإمام ابن القيم رحمه الله عن الفوائد العظيمة التي يمكن تحصيلها من وراء سماع القرآن والتدبر له والانتفاع بتوجيهاته، فقال في حديثه عند تناول منزلة السماع في كتابه «مدارج السالكين»:

«هذا السماع – يعنى للقرآن الكريم – حاد يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قبل فالق الإصباح «حي على الفلاح، حي على الفلاح» فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل».(١)

٦- وكما كانت لنا توجيهات تتعلق بتلاوة القرآن الكريم نذكر هنا مجموعة من التوجيهات تتعلق بالاستماع إليه، ونلخصها فيما يلي: -

أ – أن يحرص المسلم على سماع القرآن ممن تبدو عليه علائم الصلاح والخشية من الله تعالى عند تلاوته لكتاب الله تعالى، ففي سنن ابن ماجه وغيره

---

(١) مدارج السالكين (جـ ١ ص ٣٦٥).

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله». [1]

ب- أن يقبل على استماع القرآن بقلبه لا بأذنه، وأن يُجِلّ المتكلم بهذا القرآن وهو الله عز وجل فيلزم في حضرته الأدب، ويتفاعل مع الآيات بما هو مناسب من التدبر لها، والاهتمام بتوجيهاتها، والتأثر عند سماعها.

يقول رب العزة: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

ويقول:﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. الإسراء (١٠٧ ١٠٩)جـ - أن يحرص على تهيئة نفسه والمكان الذي هو فيه من أي ملهيات أو مشاغل تصرفه عن سماع القرآن والإنصات إليه، عملًا بقوله تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقد استعمل القرآن الكريم في هذا التوجيه لفظ «فاستمعوا» دون «فاسمعوا»؛ لأن الاستماع هو الإصغاء للكلام، وزيادة المبنى في الكلمة يدل

---

(١) سنن ابن ماجه - حديث رقم (١٣٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (ج١ - ص٢٤١).

على زيادة المعنى، ففيها دلالة المبالغة، وأتبع الأمر «فاستمعوا» بالأمر ﴿ وَأَنصِتُواْ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] والإنصات هو الاستماع مع ترك الكلام، وكلها مؤكدات على أهمية هذا الأمر حتى يحقق الاستماع إلى القرآن هدفه ومقصده.

د – إذا أراد المستمع للقرآن أن ينصرف إلى عمل آخر فلينتظر حتى ينهي القارئ قراءته ويسكت، ثم يغلق الجهاز الذي يستمع إلى القرآن من خلاله، ولا يغلقه والقارئ يقرأ.

هـ – إذا لم يكن هناك من يستمع إلى القرآن الكريم بسبب انشغاله عنه، أو خروجه، أو بُعْدِ مكانه فإن تعظيم المسلم للقرآن وإجلاله يقتضي منه ألا يدع وسيلة القراءة -كالراديو أو المسجل- يستمر، بل عليه أن يغلقه، ولا يفتحه إلا إذا كان هناك من يسفيد بتلك القراءة وينصت لها.

و – من المستحب أن تستفتح المجالس العلمية أو غيرها بتلاوة آيات من كتاب الله تعالى، وعلى القارئ أن يختار من الآيات ما يناسب طبيعة المجلس وهدفه، وعلى من يحضرونها أن يلتزموا بأدب الاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن.

المبحث الثالث

الحرص على حفظ القرآن الكريم

وفقني الله منذ أكثر من ثلاثين عامًا لإصدار بحث بعنوان «فضل حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، والوسائل المعينة على ذلك»، ولا يزال هذا البحث موجودًا حتى الآن تتكرر طباعته، ويستفيد به الناس، فلله الحمد والمنة.

وفي حديثي عن أوجه الانتفاع بالقرآن الكريم لا بد من تناول هذا الموضوع وإلقاء الضوء عليه بصورة أساسية تتناول كافة جوانبه وعناصر البحث فيه.

وسأجتهد في تقديم الكثير من المعلومات حول هذا الموضوع مما لم يتيسر تسجيله في البحث الأول بمشيئة الله تعالى.

وأهم النقاط التي سيتم تناولها في هذا المبحث ستكون على النحو التالى

١- حفظ القرآن الكريم خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية.

٢- اهتمام النبي ﷺ بأن يحفظ المسلمون القرآن الكريم.

٣- حرص الصحابة وسلف الأمة الصالح على حفظ القرآن الكريم، وتحفيظه للأجيال.

٤- تيسير الله تعالى حفظ القرآن الكريم لمن يرغب، وأهم الوسائل المعينة على ذلك.

٥- أهمية توجيه الأولاد إلى حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة.

وفيما يلي نتعرف على تفاصيل هذه النقاط في الصفحات التالية:

١ - حفظ القرآن الكريم خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية:

أشرنا فيما سبق إلى أن الله تعالى تولى بنفسه حفظ القرآن من أي تحريف أو تبديل، وأكد على ذلك بكل وسائل التأكيد فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وقد شرحنا الآية في موضع سابق فلتراجع هناك.(١)

وأشرنا كذلك إلى أن الله تعالى هيأ لهذا القرآن وسيلتين لحفظه، وهما الكتابة والتوثيق في السطور، والقراءة والحفظ في الصدور.

وفى إشارة إلى حفظ الله للقرآن في الصدور يقول رب العزة: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

---

(١) راجع (ص ٥٩) في هذا البحث.

وهذه خصيصة من خصائص هذا القرآن تعد من أشرف خصائصه، كما نص على ذلك العلماء. يقول الإمام ابن الجزرى رحمه الله: «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة».(١)

ويؤيد اختصاص أمة الإسلام بهذا الشرف قول الله تعالى لنبيه في الحديث القدسي: «إنما بعثتك لأبتليك وَأَبْتَلِي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان».(٢)

يقول الإمام النووى في شرحه على صحيح مسلم: «لا يغسله الماء» معناه محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الأزمان، وأما قوله تعالى «تقرأه نائمًا ويقظان» فقال العلماء: معناه يكون محفوظًا لك في حالة النوم واليقظة، وقيل تقرأه في يسر وسهولة.(٣)

فإذا جئنا إلى الواقع فسنجد أن القرآن وحده هو الذي يحفظ بواسطة الكبار والصغار، والرجال والنساء، والعرب والعجم، في حين أن أي كتاب سواه لا يحظى بذلك، حتى ولو لازم بعض الأفراد قراءتها ودوام مدارستها.

---

(١) النشر في القراءات العشر (ج ١ – ص ٦).

(٢) أخرجه مسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – حديث رقم (٦٣ / ٢٨٦٥).

(٣)شرح النووى على صحيح مسلم (ج ٩ – ص ٢١٧).

جاء في كتاب «خصائص القرآن الكريم» [1] مانصه: «انظروا إن شئتم مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، ثم التفتوا يسرة، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة، فلن تجدوا منها شيئًا، بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذاك، مما لا يذكر أبدًا في مقابل مدارس تحفيظ القرآن، وتلكم المستشرقة «لورا فاغليرى» تقول: إننا لنجد اليوم على الرغم من انحسار موجة الإيمان آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب -تعنى القرآن- وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوربا كلها. ويقول «جيمى متشيز»: لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظًا». أ. هـ

وإذا كانت هذه خصيصة خص الله بها أمة الإسلام؛ فذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى حيث إن القرآن الكريم معجز بلفظه فضلًا عن معانيه، فكان من الضروري -للمحافظة على نص القرآن- أن يحفظه العدد الكثير في كل عصر ومصر ليتحقق بهذا العدد الكبير التواتر بنقله جيلًا عن جيل، بحيث يُؤْمَنُ عليهم الكذب أو الغلط أو النسيان.

(١) المرجع المذكور (ص ١٨٦) د/ فهد عبد الرحمن الرومي.

ويضاف إلى ذلك أيضًا أن القرآن الكريم هو كلمة الله الأخيرة إلى الناس، وهو دستور هذا الدين الإسلامي الذي أراد الله له البقاء والخلود حتى يرث الأرض ومن عليها، فكان لا بد من المحافظة على هذا الوحي بلفظه دون تغيير أو تبديل، ولا يكون ذلك إلا بوجوده مكتوبًا في السطور، ومحفوظًا في الصدور.

وعلى ذلك يجب على أمة الإسلام أن يكون فيها حفظة للقرآن، بحيث لا يخلو منهم زمان أو مكان، وبحيث يتحقق التواتر المطلوب، وإلا نال الإثم جميع أفراد الأمة.

٢ - اهتمام النبي ﷺ بأن يحفظ المسلمون القرآن الكريم:

حين كان القرآن ينزل على النبي ﷺ كان يحرص على حفظ آياته أولًا بأول، وظهر هذا الحرص مع أول الآيات نزولًا؛ فقد تلقاها عن أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحفظها، ثم عاد إلى السيدة خديجة رضي الله عنها وتلا عليها الآيات من حفظه.

وظل هذا الحرص من النبي ﷺ ملازمًا له حتى كان يبادر إلى أخذ ما ينزل عليه، ويسابق الملك في قراءته؛ فأمره الله تعالى أن ينتظر ليلقي عليه الملك الوحي ثم يعيده كما قرئ عليه، وتعهد له سبحانه بجمعه له في صدره، وتيسير حفظه ونقله، وبيان لما يتضمنه من معانٍ ودلالات.

وفى هذا يقول رب العزة: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]

وتلا هذه المرحلة مرحلة الكتابة بواسطة كتبة الوحي.

وتلتها مرحلة ثالثة وهي مراجعة ما نزل من القرآن مع أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كل شهر رمضان من كل عام.

وقد حرص النبي ﷺ على توثيق القرآن بالحفظ في الصدور إلى جانب الكتابة في السطور، فكان يقوم ﷺ بتعليم أصحابه القرآن، ففي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا القرآن، فإذا مر بسجود سجد وسجدنا معه». [1]

وقد اشتهر هذا الأمر عن رسول الله ﷺ حتى صار أصلًا يقاس عليه، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن». [2]

وكان إذا طرأ عليه ﷺ ما يمنعه من مباشرة ذلك أوكل إلى بعض أصحابه القيام بهذا المهمة. فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (جـ ٢ – ص ١٥٧) واللفظ له، وأخرجه مسلم بنحوه – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – حديث رقم (١٠٣/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الدعوات – حديث رقم (١١٦٢).

ﷺ يُشْغَلُ، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن». (١)

وقد أوفد النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة قبل الهجرة ليُعلِّم أهلها القرآن، كما أوفد معاذ بن جبل رضي الله عنه وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن لذات الغرض.

وإلى جانب هذا الاهتمام الشخصي من رسول الله ﷺ في توجيه الأمة إلى العناية بالقرآن لم يكن يدع ﷺ مناسبة أو أمرًا فيه حث على حفظ القرآن إلا وقد سلكه.

ومن ذلك تعيينه لأحد الشباب أميرًا على بعثٍ بعثه، وكان هذا الشاب أصغرهم سنًا، لكنه كان يحفظ سورة البقرة، وفي دفن شهداء أحد كان يقدم في اللحد أكثرهم أخذًا للقرآن، وأمر بأن يؤم المصلين أقرأ القوم لكتاب الله، وزوَّج بعض أصحابه امرأة، وجعل مهرها تحفيظ زوجها لها ما معه من القرآن، إلى غير ذلك من المواقف التي سبق وأن أشرنا إليها فيما مضى، أو نأتى على ذكرها فيما هو آت.

وقد أثمر هذا الحرص النبوي على نقل القرآن الكريم عبر صدور الرجال إلى أن بقي النص القرآني محفوظًا بحفظ الله له، ولم يتطرق إلى القرآن

---

(١) أخرجه الإمام احمد (جـ ٥ – ص ٣٢٤).

ما وقع للكتب السابقة من تحريف أو تبديل، وتظل الأمانة في عنق الأمة بالمحافظة على هذا القرآن بوجود حفظته في كل عصر ومصر إلى ما شاء الله.

٣- حرص الصحابة وسلف الأمة الصالح على حفظ القرآن الكريم:

تدل الروايات المتعددة على أن كثيرًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وفيما يلي نتعرف على بعض هذه الروايات.

١- عن أبي حرب بن الأسود الديلى عن أبيه قال: جمع أبو موسى القراء، فقال: «لا تُدْخِلوا عليَّ إلا من جمع القرآن. قال: فدخلنا عليه زهاء ثلاث مائة «أي قريب من» فوعظنا وقال: أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد، فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب...».[(١)]

٢- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إليَّ أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده؛ قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرَّ «أي اشتد» يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن...».[(٢)]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (جـ ١ – ص ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري – كتاب فضائل القرآن – حديث رقم (٤٩٨٦).

وقد ذُكِرَ أن من قتل في يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول ﷺ الله ببئر معونة مثل هذا العدد، فلنا أن نتخيل كم يكون العدد الكلى في جميع الجيوش آنئذ، وفى جميع الأمصار والبلدان؟

٣- وعلى المستوى الفردي ورد عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والذي لا إله غيره، ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حين نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أُنْزِلَت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه». (١)

وقد مدح النبي ﷺ هذا الصحابي الجليل، وشجع الناس على الأخذ عنه، فقال: «من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِلَ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد». (٢)

وفيمن حفظ القرآن الكريم من الصحابة غير سيدنا عبد الله بن مسعود قال صاحب مناهل العرفان: «كان حفاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ جمًّا غفيرًا، منهم: الأربعة الخلفاء، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص،

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب فضائل الصحابة – حديث رقم (١١٥ / ١٤٦٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه – كتاب المقدمة – حديث رقم ١٣٨.

وابنه عبد الله، ومعاوية، وابن الزبير، وعبد الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة. وهؤلاء كلهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين.

وحَفِظَ القرآن من الأنصار في حياته أُبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، ومجمع بن حارثة، وأنس بن مالك، وأبو زيد..... وقيل: إن بعض هؤلاء أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي ﷺ.(١)

٤- وإضافة إلى ما ذكره صاحب مناهل العرفان ورد ذكر امرأة من الأنصار تسمى: «أم ورقة» بنت نوفل الأنصارية، وقد ورد حديثها في سنن أبي داود ومسند الإمام أحمد، وجاء فيه قوله ﷺ حين استأذنته ﷺ في الجهاد طمعًا في نيل الشهادة: «قرِّي في بيتك فإن الله عز وجل يرزقك الشهادة، فكانت تسمى الشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنًا فأذن لها». (٢)

وقد صارت هذه المرأة المباركة بعد قول النبي ﷺ لها: «قرِّي في بيتك فإن الله عز وجل يرزقك الشهادة» تُعرف بين المسلمين باسم الشهيدة، وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي قائمة بأمر الله على ما تركها النبي ﷺ عليه، إلى أن تحققت بشارة النبي ﷺ لها بالشهادة وهي في بيتها، حيث

---

(١) مناهل العرفان (جـ ١ – ص ٢٤٢) محمد عبد العظيم الزرقاني – طبعة عيسى الحلبي.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – حديث رقم ٥٩١.

كان لها غلام وجارية قد وعدتهما بالعتق بعد موتها، واستعجلا موتها لينالا الحرية، فقاما بقتلها وهربا، فلما علم أمير المؤمنين عمر ﵁ بالواقعة أحضرهما وقام بتنفيذ حد القصاص فيهما، وكانا أول مصلوبين في المدينة.

٥- ولم يكن صغار السن في مجتمع الصحابة بعيدًا عن الاهتمام بحفظ القرآن الكريم، وإنما شاركوا الكبار، وتفوقوا عليهم أحيانًا، واستحقوا لأجل ذلك التقدم عليهم في إمامة الصلاة.

ففي صحيح البخاري من حديث عمرو بن سلمة أن النبي ﷺ قال لأبيه حين وفد عليه: صلوا صلاة كذا، في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنًا مني، لما كنت أتلقى من الركبان «أي من المارين بهم ذاهبين أو عائدين من عند رسول الله ﷺ فيسمع منهم القرآن» فقدَّموني بين أيديهم وانا ابن ست أو سبع سنين. (١)

والمتحصِّل من هذا الكلام هو بيان حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على أن يحفظوا كتاب الله تعالى، وهو خير القرون، وهم قدوة الأمة لكل الأجيال التي تليهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي – حديث رقم (٤٣٠٢).

تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، ولا أريد أن ألفت النظر إلى فضيلة حفظ القرآن الكريم مرة أخرى، فقد استوفيت الكلام عن ذلك في الفصل الأول عند حديثي على منزلة أهل القرآن والبركات التي تحل عليهم، فليراجعها من أراد ربط الموضوعات ببعضها تتميمًا للفائدة.(١)

٤ - تيسير الله تعالى حفظ القرآن الكريم للراغبين ، وأهم الوسائل المعينة على ذلك:

أشارت الآيات الكريمات إلى أن حفظ القرآن الكريم أمر ميسور، ومشروع موفق لكل من أقبل عليه بحب وصدق وإخلاص.

وفى هذا يقول رب العزة: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: أي سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه.(٢)

وهذا وعد من الله خصَّ به أمة الإسلام دون سائر الأمم.

---

(١) راجع (ص ٦٦) وما بعدها من هذا البحث، وكذلك ما سبق وأن كتبته في كتابي السابق بعنوان (فضل حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، والوسائل المعينة على ذلك).

(٢) تفسير القرطبي – سورة القمر ص ٦٣٠٤ من طبعة الشعب.

وفى بيان هذه الخصيصة يقول الإمام الماوردي في «أعلام النبوة» في بيان أوجه إعجاز القرآن: «الوجه السادس عشر من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة؛ حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يُحْفَظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إلا بخصائص إلهية فضله بها على سائر الكتب».[1]

وواقع المسلمين خير شاهد على ذلك، فحفظة القرآن الكريم لا ينتمون إلى فئة عمرية محددة، فهو ميسر على لسان الصغير والكبير، والشاب والشيخ.

وتيسير حفظه كذلك ميسور لكافة الأجناس والطبقات، فيحفظه العربى والأعجمي، ويحفظه الغني والفقير، ويحفظه الرجال كما تحفظه النساء.

وبإمكان أي شخص أن يجرب حفظ قدر من الآيات، ويحفظ في ذات الوقت نصًا أدبيًا، أو قصيدة شعرية في نفس حجم الآيات التي يحفظها، وسيرى الفرق واضحًا في سرعة حفظه للقرآن مقارنة بغيره، حتى مع الذين يشكون ضعفًا في الذاكرة، ولذلك قالوا: «حفظ القرآن لا يحتاج ذاكرة قوية، بل من أراد ذاكرة قوية فعليه بحفظ القرآن».

(١) نقلًا عن (خصائص القرآن الكريم) ص (١٨٠) – د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي.

وقد فصَّلت القول في الأسباب المعينة على حفظ القرآن الكريم في كتابي «فضل حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، والوسائل المعينة على ذلك» وألخص هذه الأسباب في نقاط على النحو التالي:

- **أسباب تراعى قبل الحفظ للقرآن الكريم:**

١- استجماع الهمة وعقد العزم على حفظ القرآن.

٢- تفريغ الوقت اللازم لتحقيق هذا الهدف، وقطع كافة الشواغل التي تحول دون تحديد الوقت.

٣- اختيار شيخ متقن للحفظ على يديه، سواء أكان بالمجان، أو بدفع راتب له مقابل تفريغ وقته.

٤- الإخلاص لله تعالى، وتصحيح النية بحيث يكون الهدف مرضاة الله تعالى، وإصلاح النفس بكلام الله عز وجل.

٥- تحديد فترة معينة للانتهاء من هذا المشروع، وتقسيمها على أشهر أو سنوات معلومة.

٦- الصبر ومجاهدة النفس، وعدم الاستسلام لليأس إذا ما حدث ما يعوقك أو يصرفك.

- **أسباب تراعى أثناء الحفظ:**

١- الالتزام بمصحف واحد، بحيث يحفظ شكل المصحف ومواضع الآيات فيه، ويسهل الرجوع إليه عند الحاجة.

٢- التدرج في الحفظ، بحيث لا يكلف المرء نفسه فوق طاقتها، ويحافظ على ما حصَّله من المحفوظ سابقًا.

٣- التعرف إجمالًا على معنى الآيات المراد حفظها دون أن يشغله ذلك عن الحفظ.

٤- اختيار صحبة صالحة تعينك على حفظ القرآن، فإن اجتهدت شجعتك، وإن تكاسلت أخذت بيدك.

٥- عند التقصير في الحفظ عاقب نفسك وأدبها ببذل شيء من المال، أو صيام بعض الأيام، أو غير ذلك من الطاعات.

- أسباب تراعى بعد الحفظ:

١- تعاهد القرآن بالتلاوة والمراجعة، وهو ما أوصى به النبي ﷺ في حديثه الشريف، والذي جاء فيه «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة «أي المشدودة بالعقال وهو الحبل» إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت». [١]

وقد ضُرِبَ المثل بالإبل لشدة نفورها، وعدم القدرة على السيطرة عليها إذا نفرت.

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب فضائل القرآن – حديث رقم (٥٠٣١) / وأخرجه مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها حديث رقم (٢٢٦ / ٧٨٩).

وقد أكد العلماء على أهمية المراجعة لما هو محفوظ، حتى لا يتعرَّض المرء بسبب ذلك لنسيان ما حفظه، ومن ثمَّ يناله الذم لإهماله وتضييع ما وفقه الله إليه من حفظه كتابه -كله أو بعضه- ومن أقوالهم في هذا الشأن نختار ما يلي:

- يا حافظ القرآن لا تظن أبدًا أن المراجعة يومًا ستتوقف، أو أنك لن تحتاج إليها، هذا من أعظم الجرائم في حق حفظك، لأنك تغتال حفظك وتودعه ذاكرة التاريخ، لتقول بعد ذلك: «كنت يومًا حافظًا» أو «حفظت ونسيت». فالمراجعة وظيفة رفيعة في دولة الحفظ، ولكي تفوز بها لا بد وأن تتقرب إلى مولاك الذي بهذه النعمة أولاك. لا تقل: «مللت»، فتقول يوم القيامة: «ندمت».

- المراجعة فرض والحفظ نافلة، والحفظ إبل والمراجعة ناقته، وحفظ بلا مراجعة يساوي صفرًا، وحفظ بلا مراجعة حرث في ماء، والحفظ يهتف بالمراجعة، فإن أجابته وإلا ارتحل.

٢- الحرص على قراءة ما تحفظه من القرآن في الصلاة، وبخاصة في قيام الليل.

٣- الحرص على تحفيظ القرآن للآخرين، وقد قيل في هذا: «من أراد أن يَحْفَظَ القرآنَ فليُحَفِّظ القرآن».

٤- الاستعانة بتقوى الله تعالى، وإحياء المحفوظ من القرآن الكريم بالعمل به، وفى هذا يقول بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به». [١]

٥- البعد عن المعاصي بكافة أنواعها، والحذر خصوصًا من الغرور والعجب إذا حفظ الإنسان القرآن، وصار يشار إليه بالبنان، وأصبح موضع الإعجاب والاستحسان، والمعصوم من عصم الله، وقد نقل الحافظ ابن كثير رحمه الله في كتـــابه «فضائل القرآن» عن الضحاك بن مزاحم قوله: ما من أحد تعلم القرآن فنسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠] وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب.

وأورد الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق [٢] عن علي بن خشرم قال: «ما رأيت بيد وكيع كتابًا قط، إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال: إن علمتك الدواء استعملته؟ قلت: إي والله. قال: ترك المعاصى، ما جربت مثله للحفظ».

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (ج٢ – ص٢٥٩) الحافظ الخطيب البغدادي.

(٢) المرجع المذكور (٧٤/ ٦٣).

ومن مشهور قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ∴ فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبــرني بـأن العــلم نـــور ∴ ونور الله لا يهدى لعاصي [1]

وفي ختام هذا المبحث أوجه نصيحتي إلى كل أخ مسلم وأخت مسلمة بأن يبادروا إلى الاستعانة بالله تعالى في وضع هذه النصائح موضع التنفيذ، ولنجتهد في الدعاء آناء الليل وأطراف النهار في أن يجعلنا الله تعالى من أهل القرآن أهله وخاصته، ولنبدأ بالخطوات الأولى في هذا السبيل بوضع أقدامنا على الطريق، فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.

ولا يمنعن أحدكم كبر سن أو كثرة مشاغل، فإن المحروم من حُرِمَ الخير، ولأن يأتي أحد متأخرًا خير له من ألا يأتي، ولأن يحفظ أحدنا بعضًا من القرآن فيرتقي بسببه في بعض درج الجنة أفضل من أن لا يضع رجله في الدرج أصلًا، وَلَأَنْ يحصِّل بعض أنوار القرآن بحفظه بعض آياته خير له من أن يكون قلبه خربًا بسبب فراغه منه، وفى الحديث «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». [2]

****

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص ٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح – كتاب فضائل القرآن – حديث رقم (٢٩١٣).

المبحث الرابع

الحرص على تحفيظ القرآن الكريم ،ونقله إلى الأجيال

١- سبقت الإشارة إلى أن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن الكريم، وأن هذا الحفظ تمثل في السطور، والحفظ في الصدور، وأن هذه الثانية خصيصة من خصائص هذه الأمة المباركة.

كما سبق وأن بينا أن اهتمام النبي ﷺ بتحفيظ القرآن الكريم لجيل الصحابة، وأنه ﷺ كان يباشر ذلك بنفسه، وإذا شُغِلَ عنه أناب بعض أصحابه، وأنه أوفد بعض أصحابه إلى بعض الأمصار لتعليم الناس القرآن.

٢- ولكي تتم هذه المسألة على الوجه الصحيح، ويظل القرآن الكريم محفوظًا في الصدور، وتتناقله الأجيال، جيلًا بعد جيل، لا بد من وجود من يقوم بهذه المهمة من المسلمين، ممن وفقهم الله تعلى لحفظ كتابه واستظهار آياته، ويعدُّ ذلك من قبيل فرض الكفاية على المسلمين، يأثمون بتركه أو بالتهاون فيه.

وقد تعددت أقوال العلماء في هذا الشأن، وتناولها بالبحث من كتبوا في علوم القرآن كالسيوطي والزركشي وابن كثير والنووي وغيرهم.

قال الجويني: «والمعني فيه ألا ينقطع عدد التواتر فيه، فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف، فإن قام بذلك قوم يبلغون هذا العدد سقط عن الباقين، وإلا يأثم الكل، وتعليمه أيضًا فرض كفاية، وهو أفضل القرب».[1]

ولا يتأتى هذا إلا إذا قام من الأمة من يضطلع بمهمة تحفيظ القرآن الكريم لغيره.

٣- وقد رتب النبي ﷺ على القيام بهذه المهمة عظيم الأجر، وجليل الثواب.

ففي الحديث المتفق عليه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».[2]

وقد استدل الإمام الثوري رضي الله عنه بهذا الحديث على أن تعليم القرآن يفوق سائر الأعمال في الدرجة، حيث سئل عن أيهما أفضل، الجهاد أم القرآن؟ فرجَّح الثاني، وساق هذا الحديث.[3]

وقد روى هذا الحديث عن سيدنا عثمان بن عفان أبو عبد الرحمن السلمي، ودفعه ذلك إلى إيثار الجلوس لتحفيظ القرآن على ما سواه من الأعمال، وقال: «ذلك الذي أقعدني مقعدي هذا»[4] يقصد حديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (ج١ – ص٩٩) الحافظ جلال الدين السيوطي.

(٢) صحيح البخاري – حديث رقم (٥٠٢٧).

(٣) فتح الباري (ج١٩ – ص٩٢).

(٤) صحيح البخاري – حديث رقم (٥٠٢٧).

ويعلِّق الحافظ ابن كثير على هذه القصة بقوله: «كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رغب في هذا المقام -يعني مقام تعليم القرآن- فقعد يعلِّم الناس من إمارة عثمان إلى أيام الحجاج، وقالوا: «وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلِّم فيه القرآن سبعين سنة».[1]

ومن الأحاديث الأخرى الدالة على فضل تعليم القرآن الكريم قوله ﷺ فيما رواه عنه أبو مالك الأشجعي عن أبيه رضي الله عنه: «من علَّم آية من كتاب الله عز وجل كان له ثوابها ما تُليت».[2]

ويشهد لهذا الحديث ما ثبت عن رسول الله ﷺ في قوله: «من دلَّ على هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».[3]

ويضاف إلى ما ذكر أن تحفيظ القرآن للغير يُعدُّ من قبيل العلم الذي ينتفع به، وهو مما يبقى ثوابه لصاحبه في حياته وبعد مماته.

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (ص٤٠).

(٢) ذكره الألباني في السلسة الصحيحة (٣/ ٣٢٣).

(٣) صحيح مسلم – حديث رقم (٢٦٧٤).

٤- ويضاف إلى هذا أيضًا أن تعليم القرآن الكريم لمن لا يعلمه باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله ﷻ، ومجال هامٌّ من مجالاتها، بل إن الأولوية في ضرورة الاهتمام به، وتقديمه عمَّا سواه.

يقول الحافظ ابن حجر: «الدعاء إلى الله يقع بأمور شتى، من جملتها تعليم القرآن، وهو أشرف الجميع».[(١)]

وورد عنه أيضًا قوله: «القرآن أشرف العلوم، فيكون من تعلمه وعلَّمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن وإن علَّمه».[(٢)]

وقد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى تقديم تعلم القرآن على ما سواه، وكلام الأئمة بهذا الشأن».[(٣)]

٥- وانطلاقًا من هذا الكلام، وتدليلًا على أهمية العناية بتحفيظ القرآن الكريم يؤكد ابن خلدون في مقدمته على عناية الأمة بهذا الشأن في كل عصر ومصر، فيقول:

«اعلم أن تعليم الولدان للقرآن -شعار الدين- أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان

---

(١) فتح الباري (ج١٩ – ص٩١).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) راجع (ص٩٩) وما بعدها من في هذا البحث.

وعقائده من آيات القرآن وبعض فنون الحديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات».[1]

ويقول أبو الفضل الرازي رحمه الله: «وعلى الحفظ والتحفيظ كان الصدر الأول ومن بعدهم».[2]

٦- وقد بسط الإمام النووي رضي الله عنه في كتابه «التبيان في آداب حملة القرآن» الكلام فيما ينبغي أن يتحلَّى به محفظ القرآن الكريم من آداب، وأطال النفس في هذا الجانب، وفيما يلي إشارات مجملة إلى ما ذكره على سبيل الاختصار.

- أول ما ينبغي مراعاته أن يقصد المقرئ رضا الله تعالى، دون أن تختلط نيته في هذا برياء أو تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة أو مدح عند الناس، أو ابتغاء مال أو جاه أو ارتفاع عند الخلق، ولو كان التعليم للقرآن غير مقرون بأجرة تحصل للمقرئ لقاء هذا التعليم فلا خلاف في أنه أفضل وأكرم، وإن حصَّل من هذا التعليم عوضًا ماديًّا فقد منع ذلك البعض وأجازه آخرون طالما كانت النية في الأصل ابتغاء وجه الله تعالى.

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٣٤٤) طبعة ١٩٨٣م – دار مكتبة الهلال – بيروت.

(٢) فضائل القرآن وتلاوته، وخصائص تلاته وحملته (ص٣٣) لأبي الفضل الرازي – طبع دار البشائر الإسلامية.

- أن يحذر المقرئ في قصده حين يُحفِّظ القرآن من قصد التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه، ويحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، فإن كراهته لذلك دليل على عدم إخلاصه وتجرُّده.

- أن يحرص على أن يكون قدوة صالحة وأسوة طيبة في أخلاقه الظاهرة والباطنة، وأن يلتزم بالأوراد الشرعية من تلاوة القرآن وذكر الله تعالى على كل حال.

- أن يكون رفيقًا بمن يقرأون عليه، وأن يرحب بهم ويحسن إليهم بحسب حاله وإمكاناته، وأن يبسط لهم جناح الود والرحمة، ويقوم بتشجيعهم على طلب العلم والإكثار منه، ويعتني بمصالحهم كما يعتني بمصالح نفسه وأولاده، وأن يتسع صدره لما قد يصدر منهم من أخطاء نتيجة جهلهم أو صغر سنهم، ويتدرج معهم في تهذيبهم وتأديبهم بالأقوال والأحوال، ويكرر ذلك عليهم حتى يعتادوه ويألفوه.

- وعلى المعلم أن يكون حرصه على تعليم القرآن وغيره مقدَّمًا على ما سواه من أموره الدنيوية غير الضرورية، وأن يفرِّغ وقته ونفسه لتلامذته من كل ما من شأنه الانشغال عنهم.

- وعلى المعلم أن يعطي لكل طالب حقه بالقدر الذي يليق به مراعيًا سنَّه وقدرته على الحفظ، فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يقصِّر لمن يحتمل الزيادة، ويثني على من ظهر تفوقه منهم ما لم تخش عليه فتنة الغرور

والإعجاب بالنفس، ومن قصَّر منهم عاتبه عتابًا لطيفًا لا يجعله ينفر من العلم ويكرهه، ولا يحسد طالبًا على نجابةٍ أو تفوق ظهر منه، فإن ذلك منفعته عائدة عليه في الدنيا والآخرة، فليفرح له وليحب له ما يحب لنفسه وأولاده.

- وعلى المعلم أن يكون بين تلامذته بشوش الوجه، باسم المحيا، وأن يتفقد أحوالهم، ويسأل عمن غاب منهم.[1]

- وجماع ذلك كله أن يتعامل مع تلامذته والمترددين عليه على نحو ما كان يفعل رسول الله ﷺ مع أصحابه من حسن توجيههم، وتفقد أحوالهم، وإعانة محتاجهم، وبيانه لحرصه عليهم كحرص الأب على أبنائه، فكان يقول لهم ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم».[2]

اللهم ارزقنا حفظ القرآن الكريم والعمل به والدعوة إليه، واجعلنا - وجميع محبينا- من أهل القرآن، أهلك وخاصتك.

---

(١) انظر «التبيان في آداب حملة القرآن» الإمام النووي (ص١٣: ص٢٢).

(٢) سنن أبي داود – حديث رقم (٨) وسنده حسن، وقد أخرجه أيضًا النسائي وابن ماجه.

المبحث الخامس
تدبر آيات القرآن الكريم ،والتعرّف على مقاصده وأهدافه

يُعدُّ تدبر القرآن الكريم واسطة العقد بين ما سبق ذكره من الاهتمام بتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، والاجتهاد في حفظه وتحفيظه كله أو بعضه، وما سيتلو ذلك من حديث عن العلم بالقرآن وتطبيقه في واقع الحياة.

ولا يمكن فصل هذه المراحل عن بعضها البعض.

والذي يمكِّننا من الربط بينها برباط وثيق لا ينفصم هو الاهتمام بأمر تدبر القرآن بشكل أساسي، وبدونه لن ينتفع المسلم بقراءته للقرآن بالشكل الكامل، كما أن أعماله عُرْضة -إذا لم يفهم القرآن حق الفهم- أن يعتريها النقص والاضطراب.

ولذا نجد أن كل من تناول موضوع القرآن الكريم بالدراسة أطال النفس في موضوع تدبر القرآن وأهمية الاعتناء به والحرص عليه، حتى وجدت بعض من يهتم بهذا الموضوع يضعه على رأس أولوياته، ويدعو إلى إهمال مسألة حفظ القرآن وتحفيظه.

ونحن نثمن جهود القائمين على أمر تدبر القرآن وأهمية الاعتناء به، مع عدم التقليل من أهمية القراءة أو الحفظ، ولكن بالتشجيع على الاهتمام بذلك كله على قدم المساواة، وألا يكون الاهتمام بأحدها على حساب الآخر.

ومن هنا حرصت –وأنا أتحدث عن أوجه الانتفاع بالقرآن الكريم– أن استوفى الكلام عن كل وجه منها، وذلك دون أن أهمل وجهًا منها لحساب غيره.

وفيما يلي أتناول موضوع تدبر القرآن، وما يتعلق بهذا الأمر الهام من مسائل ومعلومات، وذلك في النقاط التالية:

١- دعوة القرآن الكريم إلى تدبر الآيات دون الاقتصار على قراءتها.

٢- مفهوم ومعنى التدبر.

٣- ثمرات التدبر وفوائده.

٤- العوامل المساعدة على التدبر.

٥- موانع التدبر، وأسباب الانصراف عنه.

٦- التحذير من التفريط في أمر التدبر عند قراءة القرآن الكريم، وكيفية الخروج من هذا المأزق.

٧- نماذج من تدبر السلف الصالح للقرآن الكريم.

أولًا: دعوة القرآن الكريم إلى تدبر الآيات دون الاقتصار على قراءتها.

١- دعانا الله سبحانه وتعالى في آياته الكريمات إلى أن نقرأ القرآن ونتلوا آياته، فقال سبحانه: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ ﴾ [الكهف: ٢٧] وأشارت الآيات الكريمات إلى أن تلاوة القرآن مأمور بها كل مسلم، فقال سبحانه موجهًا الكلام لكل مسلم في شخص النبي ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ ﴾ [النمل: ٩١-٩٢]. ومع تعدد الآيات الآمرة بتلاوة القرآن تأتي أوامر أخرى مصاحبة لها بضرورة ألا يقتصر اهتمام قارئ القرآن على ترديد الآيات بلسانه فحسب، بل لا بد من التدبر فيها، والتمعن في مضامينها، والوصول إلى أهدافها ومراميها.

ومن هذه الآيات الكريمات قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ [محمد: ٢٤].

وبالتأمل في هذه الآيات نستخلص عدة ملاحظات:

أ) ورود لفظ التدبر بصيغة المضارع، وذلك يدل على ضرورة الاستمرار في التعامل مع القرآن كلما أقبلنا على قراءته وتلاوة آياته.

ب) بينت آية سورة ﴿ صٓ ﴾ [ص: ١] أن التدبر في الآيات غاية أنزل الله لأجلها القرآن، وأن هذا التدبر هو الذي سيقود إلى تذكر أولي الألباب لما تتضمنه الآيات من وعد ووعيد، وخير وشر، وحق وباطل.

ج)استخدمت الآيات كلها صيغًا مشتقة من التدبُّر –وهو على وزن التفعُّل- وهي من الصيغ الدالة على بذل الجهد وتحمُّل المشقة في سبيل الانتفاع بكنوز القرآن الكريم، واستخراج درره وجواهره من خلال تدبر الآيات والتفاعل معها.

د) جاءت الآيتان في سورتي «النساء» و«محمد» داعية إلى التدبر في القرآن لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، وصولًا إلى الحق الذي تحمله آياته، ويتقدم في الآيتين أسلوب الاستفهام الدال على التوبيخ لكل من أعرض عن هذا التدبر، واستسلم لدواعي الهوى، وأقفل قلبه دونه.

ثانيًا: مفهوم ومعنى التدبر

٢- حين نقرأ كتابًا أو صحيفة فإننا نركز على ما تضمنته من معلومات، وما تسوقه من عبارات، ولسنا ملزمين بقبول رأيه، أو التجاوب مع ما يمليه علينا، فقد يحدث هذا وقد لا يحدث.

ولكننا مع كلام الله تعالى يختلف الأمر بالنسبة لنا اختلافًا تامًّا، فلا يكفي أن نقرأه بألسنتنا تحصيلًا للبركة، أو لنستزيد ثقافة ومعرفة بأخباره ومعلوماته، أو لأجل أن نستمتع بجميل عباراته ودقة وحسن بيانه.

بل يجب علينا -ونحن نتلوا القرآن- أن ننفذ إلى معانيه، ونقف عند أوامره ونواهيه، ونتفهم مآلاته ومراميه، وهذا ما يقتضيه لفظ التدبر، فإنه مأخوذ من «دبَّر الأمر وتدبره» بمعنى نظر في عاقبته.

وعلى ذلك فإن التدبر يقتضي أن يجتمع مع نطق اللسان حضور القلب ويقظة العقل، وأن يكون المستهدف من ذلك هو الاتعاظ والاعتبار.

وقد أحسن البعض حين ساق معنى شاملًا لتدبر القرآن يحتوي على كل هذه المعاني، فقال: «معنى تدبر القرآن هو أن تعلم أنك مخاطب بكلام الله تعالى، فتصغي له بأذن قلبك، وتتأمله بعين فؤادك، فإذا وعيت عن الله تعالى قوله، وفهمت من كلامه مراده، وتشرَّب قلبك معانيه، فانهض لامتثال

أوامره، واجتناب نواهيه، حتى يرى القرآن في سمتك، وتصطبغ به أخلاقك، ويظهر أثره على قولك وفعلك». [1]

٣- قد يقول قائل: لكن هذا الكلام لا يتسير لعوام الناس، بل هو يحتاج إلى علماء ومتخصصين.

ونجيب على هذا بأن الله سبحانه وتعالى يسَّر قرآنه للذكر، بحيث يمكن لأي إنسان يستمع إليه أويقرأه أن يفهم منه مراد الله تعالى على سبيل الإجمال، ومعظم القرآن واضح بيِّن لكل الناس.

فمثلًا حين يحدثنا الله تعالى عن دلائل قدرته وعظمته، وعما أنزله من كتب وأرسله من رسل، وما حدث للطائعين من أقوامهم والعاصين.

وحين يأمرنا الله تعالى في كتابه بالعدل والإحسان، ويأمرنا بالتقوى والصدق وغير ذلك من مكارم الأخلاق، ويحثنا على الصلاة والزكاة وسائر العبادات، وينهانا عن الفحشاء والمنكر في الأقوال والأفعال، ويعد الطائعين بالجنة، ويتوعد العاصين بالنار ...إلخ، فأي صعوبة في فهم ذلك والتفاعل معه، ونقله من محيط الأقوال إلى محيط الأفعال.

قد يستغلق معنى من معاني القرآن فلا نعرف له تأويلًا، فلا بأس حينئذٍ من الاستعانة بشيخ عالم، أو اللجوء لتفسير مبسط يزيل الغموض، ويوضح

---

(١) منقول عن مقال تحت عنوان (معنى تدبر القرآن الكريم) للكاتب/ سعيد مصطفى دياب - شبكة الألوكة.

المراد، ولا يدفعنا ذلك إلى ترك التدبر في كتاب الله تعالى تحت هذه الحجة، فهذا باب من أبواب الشيطان يريد أن يصرفنا عن مطلوب الله منا بالتدبر لآياته، والاعتبار بتوجيهاته.

جاء في كتاب «مفاتح تدبر القرآن»[1] ما نصه: «إن فهم الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والعلم بالله واليوم الآخر لا يشترط له فهم المصطلحات العلمية الدقيقة، من نحوية وبلاغية وأصولية وفقهية، فمعظم القرآن بيِّن واضح ظاهر، ويدرك معناه الصغير والكبير، والعالم والأمي.. وتدبره ليس صعبًا بحيث نغلق عقولنا، ونعلق فهمه كله بالرجوع إلى كتب التفسير، فنعمم حكم الأقل، فهذا مفهوم خاطئ، وهو نوع من التسويف في تدبر القرآن وفهمه»[2].

إن إغلاق عقولنا عن تدبر القرآن بحجة عدم معرفة تفسيره والاكتفاء بقراءة ألفاظه مدخل من مداخل الشيطان على العبد ليصرفه عن الاهتداء به.

---

(١) المرجع المذكور (ص١٧، ص١٨).

(٢) من المهم في هذا المقام إيضاح الفرق بين التدبر المطلوب من كل مسلم، وبين علم التفسير الذي يتولاه أهل العلم والتخصص، فالمفسر عالم وفقيه، يقوم ببيان الحقائق القرآنية والأحكام الشرعية، ويتصدر للفتوى، في حين أن المتدبر لا يتعرَّض للفتوى، ولا ينبني على تدبره حكم شرعي، ولكنه يجتهد في التفاعل مع الآيات بقلبه وروحه، ويجاهد نفسه للارتقاء إلى أخلاق القرآن وآدابه، وينبغي ألا يتعطل ما هو عام وهو التدبر، بحجة عدم المعرفة بما هو خاص وهو التفسير، ولو جمع شخص فيما بينهما فهو خير إلى خير، والله أعلم.

وإذا سلمنا بهذه الحجة فإن العقل والمنطق والحزم والحكمة أنك إذا أُشْكِلَ عليك معنى آية أن تبادر وتسارع للبحث عن معناها والمراد بها، لا أن تغلق عقلك دون تدبر أو تترك القراءة. أ. هـ

٤- وننبه في ذات الوقت من يقرأون القرآن أو يستمعون إليه بضرورة التعلق بالقرآن ذاته، وكثرة النظر في آياته، والاستماع والتذوق لألفاظه وتوجيهاته مباشرة من غير وسائط، طالما أن المعنى العام للآيات معروف لديه ومتيسِّر له، وليحذر في هذا أن يدع الحق القرآني إلى موضوعات فرعية، واستطرادات جانبية تأخذه بعيدًا عنه، ما لم تكن هناك حاجة ملحة إلى بحث علمي، أو ردٍّ على شبهة مثلًا.

إن الواحد منا قد يستهويه الشعر أكثر من القرآن، وقد يجذبه أسلوب كاتبٍ ما فيتحول إلى عاشق له بدرجة تفوق تأثره بكلام الله تعالى، ولو أننا أقبلنا على القرآن بصدق لفتح الله لنا أبوابًا، وأفاض علينا نعمًا تفوق الخيال، ولشعر القارئ بلذة تجعله يزهد فيما سوى كلام الله تعالى.

وقد مرَّ بنا قول أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: «إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه، فيحير عقلي بها، وأعجب من حفَّاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله.

أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه لذهب عنهم النوم فرحًا بما قد رزقوا».

ثالثًا: ثمرات التدبر وفضائله

حين يلتزم المسلم بتدبر القرآن الكريم عتد تلاوته تتحقق له ثمرات عدَّة، ليس في الإمكان تحصيلها إذا قرأ القرآن بلسانه فقط، ومن أهم هذه الثمرات ما يلي:

١- العمل على إصلاح القلب، والذي بصلاحه تستقيم كافة الأعضاء.

ويؤيد ذلك ما ورد في الدعاء المأثور: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي...إلخ.[١]

فإذا كان الماء ربيع الأرض فإن القرآن ربيع القلوب، به تحيا، وبدونه تموت.

ويقول الإمام ابن القيم ﵀: «لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، فإنه -أي القرآن- جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين.. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها».[٢]

---

(١) رواه أحمد في مسنده (ج١ - ص٤٥٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

ويقول وهيب بن الورد ﵀: «نظرنا في هذه الأحاديث فلم نجد شيئًا أرقَّ لقلوبنا، ولا أشد استجلابًا للحزن من قراءة القرآن».[1]

٢- تربية المرء من خلال تدبر القرآن الكريم على القوة والشجاعة، ومحبة الله تعالى، ونصرة الحق، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والإقبال بنشاط وجدٍّ على الطاعة، ونفور وكراهية من المعصية.

يقول الإمام ابن تيمية ﵀: «من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له الحق».[2]

وأنقل هنا تجربة حيَّة لأحد أساتذة العقيدة المعاصرين وهو الدكتور عمر سليمان الأشقر ﵀، وفيها يقول لجلسائه: إنه ظل يبحث زمنًا طويلًا عن معنى العقيدة وماهيتها، إذ أنه كلما قرأ قصة صحابي عظيم تحدى الصعوبات والمخاطر سأل: كيف استطاع هذا الصحابي أن يتحمل كل هذا العناء، فكانت تأتيه الإجابة، ذلك بسبب قوة عقيدته. حينها قرر أن يبحث عن هذه العقيدة.

قال: فبدأت أفتش في الكتب وأقرأ حتى أنهيت كتب العقيدة الموجودة في المكتبة كلها، إلا أني لم أجد أي تغيُّر في قلبي، ولم أشعر أني وصلت إلى تلك القوة الإيمانية، التي تحتمل أي أذى في سبيل الحق، ولم أشعر بتلك العقيدة التي

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥١٦) أبو حامد الغزالي.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج٣ – ص١٣٧).

غيرت العربي من عبد يُضْرَبُ بالسياط، ويأتمر بأمر مخلوق جاهل إلى حرٍّ عزيز لا يقبل الذل ولا الدنية.

قال: وفي لحظة من لحظات السكينة كنت أعيش فيها أجواء عظيمة مع القرآن الكريم، مستغرقًا في تدبر آياته، متلذذًا في فهم معانيه، حينها وجدت عقيدتي، فعرفت أن العقيدة عقيدتان: عقيدة خارجية، وعقيدة داخلية. أما الخارجية فهي تلك التي تمنعك من الانحراف، وهي تقوم على العلم الصحيح لنواقض الإيمان من أفعال وأقوال، وأما العقيدة الداخلية فهي تلك التي ترتكز في القلب، فتجعله يرى الله في كل مكان وفي كل وقت، وأن يتسيقن بها المؤمن وجود الله، ويحسَّ بمراقبته، ويشعر بمعيته له أينما حلَّ وارتحل. يبصر كيف يمهد له في الحياة، وكيف يمنعه ويحرمه، وكيف يدافع عنه ويحرسه، فيخاف عقابه، ويطمع في ثوابه، ويحبه أكثر من نفسه، ويناجيه وهو يعرف أنه أقرب إليه من حبل الوريد.

وأشار رحمه الله إلى أن فريقًا من المسلمين الآن ركزوا على العقيدة الخارجية، وأهملوا العقيدة الداخلية؛ فقست قلوبهم، وغلظت طباعهم، فكانت نفوسهم فظة، وأخلاقهم صعبة المعشر.

وختم حديثه بقوله: «إذا أردتم أن تصلوا إلى تلك العقيدة الداخلية فأكثروا من قراءة القرآن، وتدبروا معانيه، وافهموه منهجًا للحياة».[1] أ. هـ بتصرف يسير.

٣- وأضيف إلى ما سبق ذكره في النقطتين السابقتين من آثار تدبر القرآن نقاطًا أخرى، ولكنني أشير إليها إجمالًا في نقاط مختصرة، خشية الإطالة.

أ) تدبر القرآن الكريم يوقف صاحبه على أنواع شتى من العلوم والمعارف، تشمل كافة مناحي الحياة، منها ما يتعلق بالفرد، ومنها ما يتعلق بالمجتمع، ومنها ما يتعلق بالدنيا، ومنا ما يتعلق بالآخرة، ومنها ما يتعلق بسوى ذلك.

ب) بتدبر المسلم للقرآن الكريم يقف على كثير من أوجه إعجاز هذا القرآن، والذي أعجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو ببعضه، وفي هذا يقول الإمام بدر الدين الزركشي: «إن التدبر لإعجاز القرآن واجب مفترض».[2]

ج)التدبر في القرآن الكريم يحيط المسلم علمًا بالسنن الإلهية التي تحكم الأفراد والمجتمعات، ومن هم أهل الحق، ومن هم أهل الباطل، ويزيد المسلم ثقة في أن الله تعالى ينصر الحق وأهله، ويهزم الباطل وحزبه.

---

(١) هذا الكلام منقول عن الشيخ رحمه الله بواسطة تلامذته على صفحات التواصل الاجتماعي.

(٢) البرهان في علوم القرآن (ج٣ – ص٥٠٢).

د) بتدبر المسلم للقرآن يشعر بلذة تلاوة هذا القرآن؛ فيحبه من كل قلبه، ويتحول لديه الإعجاب بالأصوات الحسنة للقرآن فقط، إلى التفاعل مع آياته، وزيادة الإيمان بتوجيهاته.

يقول الإمام الزركشي: «من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئًا».[1]

هـ)تدبر القرآن الكريم ينقل صاحبه من دائرة الاهتمام بالألفاظ الخارجية فقط، ويجعله يتعمق في معانيه ومراميه، وبالتالي تتحقق في حياته رسالة القرآن من كونه نورًا وروحًا وهدىً وموعظة وشفاءً.

«إننا نقف منذ زمن بعيد أمام الباب الخارجي لعالم القرآن؛ لذا من المتوقع أنه إذا فُتح لنا هذا الباب -بفضل الله وكرمه- وولجنا إلى الداخل فسوف تصيبنا الدهشة والانبهار مما سنرى من عجائب وكنوز... إنها حياة أخرى غير التي نحياها، تلك التي يعيشها من يدخل إلى عالم القرآن».[2]

٥- ومن هنا يركز سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- على ضرورة الاهتمام بأمر التدبر، والتركيز على الكيف لا على الكمِّ.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (ج٣ – ص٥٠٢).

(٢) الإيمان أولًا (ص١٦١) – د. مجدي الهلالي.

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ﵄: «لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة»[1] وقال أيضًا: «لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحبُّ إليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا».[2]

وذكر عن الإمام الشافعي ﵀ قوله في شأن سورة العصر: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم».[3]

وقال الإمام ابن القيم ﵀: «قراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن».[4]

وقد يرى البعض أن هذا الكلام يتعارض مع كون النبي ﷺ أقرَّ الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ على قراءة القرآن الكريم في ثلاثة أيام، وذلك حين قال له: «لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاثة أيام».

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥٠٢).

(٢) نفس المرجع (ج٣ – ص٥٠٢).

(٣) تفسير ابن كثير (ج٤ – ص٥٤٧).

(٤) مفتاح دار السعادة (ج١ – ص٢٣٠).

ويجاب عن هذا بأن قول النبي ﷺ: «من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقهه» دليل على أن فقه القرآن حين تلاوته لا غنى عنه ولا بد منه للانتفاع بهذا القرآن، وهؤلاء الصحابة الكرام ومن سار سيرتهم لم تكن معاني القرآن بعيدة عنهم، فهم يعيشونه لفظًا ومعنىً، ويتعايشون مع أوامره ونواهيه قلبًا وقالبًا، وكل من كان القرآن في حياته حاضرًا بهذا المعنى لا يصعب عليه أن يقرأ الكثير منه مع كامل تدبره، والاهتداء بهديه، والله أعلم.

رابعا: العوامل المساعدة على التدبر

٦- تتعاون مجموعة من العوامل على الوصول بالقارئ للقرآن أو المستمع إليه إلى تحقيق التدبر الأمثل للقرآن الكريم.

وبالنظر في هذه العوامل نجد أن بعضها يتعلق بالشخص نفسه، وبعضها يتعلق بالجو الذي ينبغي أن يتوافر حال استماع أو تلاوة القرآن، وبعضها يتعلق بذات القراءة وأسلوب أدائها، وبعضها يتعلق بالتخلي عن العوائق التي توصد أمام الشخص باب التدبر.

وفيما يلي نتعرف على هذه العوامل، وفق الترتيب المذكور.

أ) ما يتعلق بالشخص القارئ أو المستمع للقرآن.

١- يجب على المرء حين يقرأ القرآن أو يستمع إليه أن ينظر إليه باعتباره موجهًا إليه هو، وأن يتفاعل مع الآيات من هذا المنطلق، وليس على أساس أنها تاريخ، أو أنها تعني أناسًا آخرين.

وقد مرَّ بنا قول الإمام الحسن البصري رحمه الله: «إن من كان قبلكم رأوه – أي القرآن- رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار». [1]

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٤٩٨).

ويقول محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدَّر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه، ليتأمله ويعمل بمقتضاه» [(١)]

٢- امتلاء قلب قارئ القرآن أو المستمع إليه بحب هذا القرآن والتعلق به، والرغبة الدائمة في الجلوس إليه، والتلقي عنه.

يقول أمير المؤمنين عثمان بن عفان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «لو طهرت قلوبنا لم تشبع من قراءة القرآن». [(٢)]

وإنما يستدل المسلم على وجود هذا الحب في قلبه نحو القرآن بفرحه حين لقائه، وقضاء الأوقات الطويلة في رحابه، والشوق إليه، والتطلع إلى لقائه إذا حالت بين الإنسان وبين هذا اللقاء مشاغل أو عوائق، ودوام الاستشهاد بآياته، والاستنارة بتوجيهاته».

٣- لن يتأثر قارئ القرآن بما يتلوه إلا إذا عَمُرَ قلبه بالخشية من الله تعالى، وزاد لديه الإحساس بالخوف من الله عز وجل، وهو ما دلت عليه آيات عدة في كتاب الله تعالى.

يقول ربنا: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه: ١-٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى:

(١) نفس المرجع السابق (ج٣ – ص٥١٦).

(٢) نفس المرجع السابق (ج٣ – ص٥٢٠).

١٠]. ، ويقول: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾ [ق: ٤٥]. . وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]. .

وعلى ذلك لا بد لقارئ القرآن من استشعار الرهبة والوجل وهو يتلو هذا القرآن، بحيث يتدبر ما يأمره به أو ينهاه عنه، ويتفاعل مع ذلك بالقدر الذي يريد أن ينتفع به ويغيِّر منه.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٤- أن يستصحب القارئ الإخلاص في تعامله مع القرآن حفظًا أو تلاوة أو تعليمًا، والتجرد الكامل من كل غرض دنيوي؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وإذا قصد الشخص بعمله الناس أو حظوظ الدنيا عُدِمَ التوفيق، وحُرِمَ لذة التعلق بكتاب الله تعالى.

ب) ما يتعلق بالجو الذي ينبغى أن يتوفر حال استماع أو تلاوة القرآن.

١- على من يريد تدبر القرآن الكريم أن يختار لنفسه وقتًا مناسبًا يُقْبِلُ فيه على كتاب الله تعالى دون أن يصرفه عن ذلك شيء، وأفضل الأوقات ليلًا وقت السحر قبيل الفجر، وأفضله في النهار أوله بعد صلاة الصبح، وأفضل القراءة ما كانت في الصلاة، وبخاصة في قيام الليل.

فإن لم يتيسر ذلك فليكن في أي وقت مناسب، بحيث لا يحرم المرء نفسه من الصلة بكتاب الله تعالى والإقبال عليه.

٢- عليه أيضًا أن يختار المكان المناسب، بحيث يبتعد بنفسه عن مواطن اللغو وضجيج الحياة وصخبها، ويركز مع نفسه فيما يتلوه من آيات الله تعالى.

فإذا تعذر عليه ذلك أمكنه أن يقرأ وهو يسير في طريق، أو هو يستقل مركبة أيًّا كان نوعها، وليجتهد في تحصيل التدبر ما أمكنه ذلك.

٣- أن تكون لدى الإنسان نية في أن يجلس مع القرآن الكريم وقتًا طويلًا، وأن يختار له أفضل أوقاته وأحسنها، وليس النافلة أو المتبقي من أوقاته، وصدق من قال: «القرآن الكريم لا يحتاج إلى وقتك، بل وقتك هو الذي يحتاج إلى القرآن».

٤- أن يحرص على الطهارة الكاملة، وأن يستاك ويتطيب لمجلس القرآن الكريم ما أمكنه ذلك، وبخاصة لمن يقرأ ورده اليومي، فإن كان المجلس للعلم أو التعلم أو الحفظ، وشق عليه الالتزام بذلك؛ فإن المتعلم يسعه ما لا يسع غيره، والمشقة تجلب التيسير.

٥- يستحب للقارئ أن يستقبل القبلة، ويجلس جلسة المتأدب في التلقي عن الله تعالى، بحيث يظهر في جلسته التوقير لكتاب الله تعالى، وإجلاله لخالقه وتذلله له.

٦- أن يستعين بصحبة صالحة تعتني بأمر التدبر، أو يستصحب كتابًا يؤكد على أهمية هذا الأمر، ويعيده إليه، ويذكِّره به، كلما حاول الشيطان أن يبعده عن هذا السبيل ويصدَّه عنه.

ج) ما يتعلق بذات القراءة وكيفية توظيفها لتحقيق التدبر.

أشرت في مبحث تلاوة القرآن الكريم إلى كثير من الأحكام التي تتعلق بهذه النقطة، وكلها عوامل تساعد على تحصيل التدبر، والاستفادة منه.

وأضيف إلى ما سبق ذكره هذه النقاط.

١- أن يركز القارئ على دلالات الآيات وما تستهدفه من توجيهات، ولا يشغله عدد الأجزاء أو السور عن هذا الأمر، فالقليل مع التدبر خير من الكثير الخالي منه.

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس ﷺ: «لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة»، وقال أيضًا: «لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحبُّ إليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا».

وقال الإمام ابن القيم ﷺ: «قراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن».

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك مرارًا.

٢- أن يعلم القارئ أن تدبر الآيات هو المقصود الأعظم من التلاوة، فيجتهد في تحصيل ذلك والوصول إليه.

ويقول الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله: «وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، به تنشرح الصدور، وتستنير القلوب... وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرع وطلب».[١]

٣- أن يعلم القارئ أن العبرة في تلاوة القرآن بالكيف وليست بالكم، فقد يقرأ شخص قراءة كثيرة دون التفات إلى مقاصد التلاوة وأهدافها، ويقرأ غيره كمًّا أقل مع مراعاة ذلك والتأثر به، فيكون الثاني -يقينًا- أفضل من الأول.

ولذا يشير سلفنا الصالح إلى التركيز على المقروء مع التدبر وإن قلَّ.

(١) الإتقان في علوم القرآن (ج١ - ص١٠٦).

يقول سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: «لا تهذوا القرآن كهذِّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل[1]، وقفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة.»[2]

واعتبارًا بهذا المعنى يوصي البعض بأن نعطي للقرآن الكريم وقتًا محددًا -ساعة مثلًا- ونقرأ فيها مع التدبر وتحصيل الفائدة دون نظر إلى الكمِّ الذي سنقرأ في هذه الساعة.

ويرى آخرون ضرورة أن يكون للمسلم ورد للقراءة تراعى فيه آداب التلاوة التي أشرنا إليها، وألا يقل هذا القدر عن جزء يوميًّا، ويكون له ورد آخر يتعلق بحفظ القرآن ولو لوجه واحد من المصحف أو أقل منه أو أكثر يوميًّا، وورد ثالث للتدبر، بحيث يعيش يوميًّا مع آية أو آيتين أو ثلاث، بحيث يعيش بكيانه كله، ويفهم معناها، ويتعرف على مقاصدها وأوجه الإعجاز فيها، وكيفية الاستفادة منها في واقعه، وجعلها نورًا يهتدي به، وميزانًا يحكم به ويتحاكم إليه.[3]

(١) لا تنثروه نثر الدقل: الدقل رديء التمر، فإنه لردائته لا يحفظ ويلقى منثورًا.

(٢) تفسير القرآن لابن كثير (ج٤ – ص٤٣٤) وذكره كثيرون غير ابن كثير.

(٣) انظر (مفاتح للتعامل مع القرآن) ص٦٨ – ٦٩ – دكتور صلاح الخالدي – طبعة سادسة سنة ٢٠١٣م – دار القلم – دمشق.

خامسًا: موانع التدبر، وأسباب الانصراف عنه.

يقول الله تعالى في حديثه عن آيات القرآن الكريم: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ». وهذه الآية الكريمة -كما أشار الإمام ابن القيم- تتضمن شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، وحصول الفائدة منه، وبين أن ذلك يتضمن أربعة شروط:

١- مؤثر.

٢- محل قابل.

٣- إصغاء واهتمام.

٤- انتفاء الموانع التي تحول دون هذا الانتفاع.

فالمؤثر هو القرآن، والمحل القابل هو القلب الحي، والشرط الثالث وهو الإصغاء بالسمع، والشرط الرابع الحضور وعدم الانشغال عن ذلك بشيء آخر سواه، وإذا توفر كل ذلك حصل الأثر، وهو التذكر والانتفاع.[1]

ومن هنا تبدو أهمية التعرُّف على أسباب الانصراف عن مسألة التدبر، والعوامل المؤدية إليها، حتى لا يصاب المرء بإغلاق قلبه، وانصراف فؤاده عن القرآن، وبالتالي تنعدم الفائدة من القراءة، ويضيع الأثر المترتب عليه.

ومن أهم ما ننبه عليه من موانع للتدبر ما يلي:

(١) (الفوائد لابن القيم) (ص٦) بتصرف.

١- الاهتمام بالمباني على حساب المعاني، والعناية بتجويد الألفاظ دون النظر إلى الأحكام والآداب.

في الإشارة إلى هذا المانع يقول الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله: «أكثر الناس مُنعوا من فهم القرآن لآسباب وحجب سدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وأولها: أن يكون الهمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكِّل بالقراء ليصرفهم عم معاني كلام الله تعالى، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، ويخيل إليهم أنه لا يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورًا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني؟».[1]

وهذا الكلام يسري على من ينصبُّ اهتمامهم على تحسين الصوت وتجويد الأداء دون غيره، وهذا الكلام لا يقلل من شأن تجويد الحروف والعناية بها وتحسين الصوت وتجويده، ولكنه يحذِّر من الوقوف عند هذه النقطة والانشغال بها عما ينبغي من تدبر الآيات، والاستفادة بها في صلاح القلوب، وتجويد الأفعال والأقوال.

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥١٣).

٢- تقصير الوقت الذي يقضيه المرء مع القرآن الكريم.

وهذا المانع يتأتى من ازدحام أوقاتنا بالأعمال الكثيرة، والتي لا تسمح لنا بالجلوس الطويل مع القرآن الكريم، فيبدو المرء عند قراءته للقرآن مستعجلًا، لا يعطي لنفسه فرصة التأمل والتدبر لما يتلوه، وينصبُّ اهتمامه على قراءة ورده في أقصر وقت ممكن.

ولو علم المسلم أن القرآن الكريم لا يحتاج إلى وقته بقدر ما يحتاج وقته إلى القرآن، وذلك لتعمَّ بركته، وتتحقق في الحياة ثمرته، ولو علم المسلم ذلك لما ضنَّ بوقته -وإن طال- في قراءة هذا القرآن، وتدبر آياته آناء الليل وآناء النهار.

٣- مقارفة الآثام، وارتكاب المعاصي، واتباع الأهواء.

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

وقد فُسِّرت الأقفال في هذه الآية بأنها المعاصي والشهوات ودواعي الهوى التي تسيطر على القلوب، فلا تدع منفذًا أو متسعًا لقبول الحق واتباع هدي القرآن الكريم.

يقول الإمام الزركشي رحمه الله: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كِبْرٌ أو هوىً أو حب الدنيا أو وهو مصرٌّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان».[1]

---

(١) البرهان في علوم القرآن (ج ٤ – ص ٦١) – الإمام الزركشي.

فلا بد للإنسان -إذن- لينتفع بالقرآن من أن يطهر أدوات التلاوة التي يتعامل مع القرآن من خلالها، كالقلب والعين واللسان وسائر الأعضاء، بحيث ينزل القرآن الكريم على أرضية صالحة، وتربة مهيئة، فتؤتي الآيات ثمرتها، ويتحقق هدفها، وإلا كانت سببًا في زيادة ضلاله وشقائه.

وصدق الله القائل عن آيات القرآن الكريم: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢]. والقائل: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

سادساً: التحذير من التفريط في أمر التدبر عند قراءة القرآن الكريم، وكيفية الخروج من هذا المأزق.

إذا خلت قراءة القرآن الكريم من التدبر، وأصبحت مجرد ألفاظ يرددها المرء بلسانه دون التأثر بها أو الانفعال معها، فإنه -بذلك- يفوِّت على نفسه الانتفاع بهذا القرآن، ويُحْرَمُ من لذة تلاوته والاستمتاع به، ويُعرِّضُ نفسه بهذا المسلك للذم دون المدح.

ولذا كثرت كلمات الأئمة وتوجيهاتهم بالتحذير من هذا المسلك، وأهمية استصحاب التدبر في تعاملنا مع قراءة القرآن الكريم، وفيما يلي بعض أقوالهم في هذا الشأن:

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها».[1]

ومن كلمات الشيخ صالح بن عثيمين ﷺ: «إذا رأيت قلبك لا يتأثر بالقرآن فاتَّهم نفسك؛ لأن الله أخبر أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لتصدع».

وقد ذمَّ النبي ﷺ أقوامًا لكونهم يقرءون القرآن فلا يجاوز حناجرهم[2]، بمعنى أنهم يرددونه بألسنتهم ولا يدخل إلى قلوبهم، ولو أنه دخل قلوبهم لانتفعوا به، ولساروا في حياتهم على هدى، ولكنهم ضلوا وأضلوا.

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥١٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري – رقم (٦٩٣١)، وأخرجه مسلم (١٤٣ / ١٠٦٤).

ولن يتحقق لقارئ القرآن الكريم ما ترتب على هذا القرآن من هداية ورفعة في الدنيا والآخرة إلا أن يعيش معه بقلبه وقالبه، ويتصف بآدابه وأخلاقه، ويحيا على هديه وسنته.

يقول الإمام الآجري ﵀: «المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن؛ فكان كالمرآة، ويرى بها ما حسُن من فعله وما قبحُ، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوَّفه من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته -أو من قارب هذه الصفة- فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة».[1]

قد يقول قائل: هل معنى هذا أن المرء إذا فقد التركيز عند التلاوة، واستصعب عليه أمر التدبر في بعض الأحيان؛ هل يدفعه ذلك إلى ترك القراءة أو التوقف عنها، وأقول: لا يعني كلامنا هذا ترك القراءة أو التوقف عنها، ولكننا نقرأ ونكثر من القراءة، مع الاجتهاد في تحصيل التدبر، ونخلص النية في هذا، وسنصل -حتمًا وبإذن الله- إلى التأثر بالقرآن والانتفاع بتوجيهاته طال الوقت أم قصر.

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٢٧) – الإمام الآجري.

يقول بعض العلماء: «لا تترك وردك من القرآن، من يقرأ في يومه وهو غافل عن معانيه، يقرأه في غده وهو ذاكر لها، ومن قرأه في غدٍ وهو ذاكر لها أوشك أن يعمل بعد غدٍ بها».

وسئل الشيخ السعدي: «كيف أصل لتدبر القرآن؟»، فقال: «لا تزال تقرأ ثم تقرأ، حتى يفتح الله قلبك للتدبر».

وقال ثابت البناني ﵁: «كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة».(١)

وبالتالي فإن ترقي الإنسان من مجرد القراءة باللسان إلى درجة حضور القلب وتدبر المعاني يحتاج من المرء إلى جُهْدٍ ومثابرة، ويحتاج أيضًا إلى تخطيط لتنتقل التلاوة من التأمل والتدقيق فيما تدل عليه لكي تصبح واجبات عملية يلزم المرء فيها نفسه الالتزام بها، والسير على نهجها.

يقول محمد بن كعب القرظي ﵁: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله.. وإذا قدَّر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه».(٢)

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣ – ص٥٢٠).

(٢) المرجع السابق (ج٣ – ص٥١٦).

ومن المتوقع أن تختلف طرقنا في كيفية الاستفادة من توجيهات القرآن الكريم وصولًا إلى التدبر المطلوب، ثم ترجمة ذلك إلى واقع تطبيقي، ولا ضرر في هذا طالما أن المقصد لدى كلٍّ منا واحد.

وإليك تجربة تتعلق بأمر التدبر وما يترتب عليه، وأراها مناسبة في هذا المقام، وهي لطبيب وروائي اسمه الدكتور أحمد خالد توفيق رحمه الله.

يقول: «عندما تقرأ القرآن ضع بجانبك ورقة وقلمًا، وإذا استوقفتك آية تلامس قلبك وتحبها، اكتبها في ورقة صغيرة، وضع هذه الأوراق في صندوق صغير، واكتب على الصندوق: «رسائل ربي»، وكلما احتجت لرسائل في يومك اذهب وخذ إحدى هذه الأوراق، واقرأ رسالة الله إليك».

وهذه الطريقة تفيد من يقرأ ورده من القرآن الكريم يوميًّا، بحيث يقرأ من أول المصحف حتى ينتهي منه ثم يعود إليه؛ وذلك لأنها ستجعله يركز مع القراءة، ويتدبر مع مدلولات الآيات، ويستخرج منها ما لامس قلبه من معانٍ.

ثم يقوم بتسجيلها للعودة إليها فيما بعد لمطالعتها وترجمتها إلى واقع عملي، بحيث يصبح لديه مع طول الصحبة للقرآن الكريم رسائل من الله إليه، تزيده إيمانًا، وتكون له رصيدًا ينفع بها نفسه، ويدعو إليها غيره.

وهناك طريقة أخرى يمكن سلوكها في أمر التدبر، وهي تجميع الآيات المتصلة بموضوع واحد، وتنسيقها في إطار موضوعي، ودراستها بشكل يعمقها في نفس القارئ والمستمع، ويحفز الهمة للعمل على تطبيقها وملازمتها،

ومن ذلك مثلًا موضوع بر الوالدين، وموضوع الإحسان إلى اليتامى، وموضوع المحافظة على الصلاة، وغير ذلك كثير.

سابعًا: نماذج من تدبر السلف الصالح للقرآن الكريم.

استكمالًا للحديث عن تدبر القرآن الكريم أسوق بعض النماذج التي بمعرفتها والاطلاع عليها يتبين لنا اهتمام سلفنا الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بهذا الأمر، ولتكون حافزًا لنا على اقتفاء آثارهم، والسير على دربهم.

١- وأول ما يطالعنا في هذا المقام سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ بما ورد عنه من أحاديث تدلنا على معايشته للقرآن، وتجاوبه مع آياته آياته عند قراءتها.

لقد مرَّ بنا حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح بالبقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ».[1]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي ﷺ بآية، حتى أصبح يرددها «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»».[2]

(١) رواه مسلم – حديث رقم (٢٠٣/ ٧٧٢).

(٢) سنن ابن ماجه – حديث رقم (١٣٥٠)، وقال عنه البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

٢- وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء».[١]

٣- وعن الحسن رضي الله عنه قال: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمرُّ بالآية في ورده، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضًا».[٢]

٤- وورد عن عمر رضي الله عنه أيضًا وهو يتفقد حال المسلمين بالليل سمع رجلًا يتهجد ويقرأ سورة الطور، فلما بلغ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾ [الطور: ٧-٨] قال: «قسمٌ ورب الكعبة حق»، ثم رجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.[٣]

٥- ورد عن طلحة رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١]، فقال: «أرى ربي يستنفرنا شيوخنا وشبابنا». جهزوني أي بني «جهزوني يعني للجهاد»، وكان يومها قد شاخ وكبر، فقال بنوه: «قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونحن نغزو عنك «أي بعدما

(١) رواه البخاري – حديث رقم (٦٨٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٥١).

(٣) تفسير ابن كثير (ج٤ – ص٢٤٠) – تفسير سورة الطور.

عجزت»»، فقال: «جهزوني»، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة لدفنه إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها ولم يتغير.[1]

٦- عن القاسم بن محمد ﷺ قال: «كنت إذا غدوت بدأت ببيت عائشة ﵂ أسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ «فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ»، وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي، تصلي وتبكي».[2]

وقد أورد البعض هذه القصة عن السيدة أسماء ﵄، ولا مانع من تكرار القصة من كل منهما.

٧- ورد عن الإمام الحسن البصري ﷺ أنه قرأ في ليلة الآية الكريمة «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا» فما زال يرددها حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: «إن فيها معتبرًا. ما نرفع طرفًا ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر».[3]

(١) تفسير القرطبي – سورة التوبة (ص٥٩٨٩) – طبعة دار الشعب.

(٢) صفة الصفوة (ج٢ – ص٣١) ابن الجوزي.

(٣) قيام الليل (ص٦٠) محمد بن نصر المروزي.

٨- وقرأ تميم الداري سورة الجاثية، حتى بلغ قول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١] فجعل يرددها وهو يبكي حتى أصبح».

وأورد الإمام القرطبي في تفسيره هذا الموقف مع تلك الآية مع تميم الداري، ومع الربيع بن خثيم، ومع الفضيل بن عياض، وعلَّق قائلًا: «وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين».[1]

وما ذكرناه هنا من نماذج ما هو إلا قطرة من بحر، وغيض من فيض فيما يتعلق بشغف السلف الصالح وغرامهم بالقرآن الكريم، واجتهادهم في تلاوته وتدبر معانيه، وتلذذهم بفيوضاته ومراميه.

نسأل الله العليَّ القدير أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، وأن يجعله أنيسًا لنا في وحدتنا، ونورًا لنا في ظلمتنا، وشفيعًا لنا يوم نلقاك يا رب العالمين.

(١) تفسير القرطبي (ص٥٩٨٦) – تفسير سورة الجاثية.

المبحث السادس
العمل بأحكام القرآن ،والتحلِّي بأخلاقه وآدابه

لم تكن الفصول والمباحث السابقة سوى تمهيد وتوطئة للوصول بنا إلى هذه النهاية المرجوَّة، والتي يتمثل فيها القرآن في حياتنا منهجًا للتعامل، ودستورًا للأخلاق، وأداة نرقى بها إلى سُلَّم الكمال والسمو على أساس من منهج الله الذي لولاه ما كان الإسلام ولا ما كان المسلمون، بتاريخهم المشرق، وحضارتهم التي سارت على هديه، وتمسكت بتعاليمه.

إن العمل بالقرآن هو الثمرة اليانعة لقراءته والتدبر فيه وحفظه وتحفيظه، ولو فاتنا قطاف هذه الثمرة لضاع كل ما تقدم من جهد وتعب، بل وتحول القرآن في حياة صاحبه إلى حجة عليه، وخصم له بين يدي الله تبارك وتعالى، وبدلًا من أن يكون شفيعًا لصاحبه، ويرقى إلى الدرجات العلا في الجنة، يسوقه إلى النار، وبئس القرار، وفي الحديث: «القرآن شافع مشفع، وماحلٌ مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنه، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار». [1]

والماحل هو الشاهد، وقيل هو الخصم المجادل المصدق.

وقد تكررت الإشارة فيما سبق إلى هذا المعنى مرارًا في الفصول السابقة، ولكنني -لأهمية هذا الموضوع وجلال قدره- أرى أن أعرض ما يتعلق به

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٢٤)، وصححه الشيخ الألباني في السلسة الصحيحة (٢٠١٩).

ويدل عليه بشكل أوسع، وبدلالات وبراهين أسطع، حتى تكتمل الصورة لدينا ونعرف عن القرآن ما لنا وما علينا.

وفيما يلي عرض لأهم النقاط التي سنتعرف عليها من خلال هذا المبحث:

١- دعوة الله ﷻ إلى العمل بالقرآن، والثناء على من يقومون به، وينفذون تعاليمه.

٢- دعوة النبي ﷺ إلى التمسك بالقرآن والاعتصام به، والثناء على أهله الحقيقيين الذين يعملون به.

٣- ذمُّ من يحرصون على قراءة القرآن أو حفظه كلماتٍ وحروفًا، مع إهماله أخلاقًا وحدودًا.

٤- كلمات السلف الصالح فيمن يوصفون بأنهم أهل القرآن.

١- دعوة الله ﷻ إلى العمل بالقرآن، والثناء على من يقومون به، وينفذون تعاليمه.

وردت في كتاب الله تعالى آيات عدة تدعو المسلمين إلى العمل به، والسير على منهاجه، وتطبيق أحكامه.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم الدالة على ذلك.

فمرَّة يأمر الله عباده باتباع القرآن، والسير خلف تعاليمه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ومرَّة يأمرنا بالاستمساك به، وعدم التفريط فيه.

يقول الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣]. ومرَّة يدعونا إلى تحكيمه في كل ما ينزل بنا، ويحذرنا من الميل بأهوائنا بعيدًا عنه.

يقول رب العزة: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. ورابعة يدعونا إلى الاعتصام به، والاجتماع عليه، والحذر من الفرقة والاختلاف حوله.

يقول رب العزة: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد فُسِّر حبل الله في الآية بالإسلام، كما فُسِّر بالقرآن الكريم، ولا مانع من إرادة المعنيين معًا.

وتارة يدعونا إلى تلاوته، ويثني على من يواظبون على تلك التلاوة، ويعدهم بالأجر العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]. وتكرر الأمر بالتلاوة في كثير من الآيات، وهي أعم من أن تكون مجرد ترديد اللسان.

يقول الإمام ابن القيم ﵀: «تلاوة القرآن تتناول لفظه ومعناه، والمراد بتلاوة المعنى اتباع القرآن تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً بنهيه، وائتمامًا به حيث قادك انقدت معه. وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها أهل تلاوة ومتابعة حقًّا».[1]

وهؤلاء من يستحقون حينئذٍ الثناء عليهم من الله تعالى، وهو ما أكدت عليه الآيات الكريمات في أكثر من موضع.

٢-**يقول الله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥]. ويقول تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

---

(١) مفتاح دار السعادة (ج١ – ص) بتصرف.

٣-دعوة النبى ﷺ إلى التمسك بالقرآن والاعتصام به ، والثناء على أهله الحقيقيين الذين يعملون به.

وردت أحاديث عدَّة تدعونا إلى الاعتصام بالقرآن والتمسك به، وبينت أنه عصمه من الفتنة، وأمان من الزيغ والضلالة.

وقد مرَّ بنا من هذه الأحاديث الكثير، ولسنا بحاجة إلى إعادة التذكير بها، ولكننا نركز على ما ورد في الأحاديث من أن الثناء على أهل القرآن لا ينطبق إلا على من عملوا به، وساروا على هديه.

وإليكم بعض هذه الأحاديث.

١- عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ القرآن وعمل بما فيه أُلبِسَ والداه تاجًا...إلخ».

ففي قوله «وعمل بما فيه» دلالة على ما أشرت إليه.

٢- عن النواس بن سمعان الكلابي ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران...إلخ».

ففي قوله «وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا» تأكيد ثانٍ على ضرورة العمل بالقرآن، ليتأكد انتفاع صاحبه به.

٣- عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: «هل تعرفني؟» فيقول: «ما أعرفك»، فيقول له: «هل تعرفني؟» فيقول: «ما أعرفك»، فيقول: «أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك... إلخ»».

والشاهد في الحديث قول القرآن لصاحبه: «أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك».

حيث تدل العبارة على أن حامل القرآن لم يقتصر على حفظه، بل انتفع بآياته، فكان يصوم النهار، ويقوم الليل؛ فكان جزاؤه عند الله تعالى عظيمًا لأجل ذلك.

٤- عن سالم بن عبد الله عن أبيه ﵁ **عن النبي** ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».[1]

---

(١) رواه البخاري – حديث رقم (٧٥٢٩)، ورواه مسلم واللفظ له – حديث رقم (٨١٥).

والشاهد في الحديث قوله: «رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار». والقيام به أعم من مجرد تلاوته باللسان، بل هو منهج ودستور يتعامل به المسلم في كل أحواله، ليلًا ونهارًا، ويقظةً ومنامًا.

وهذه مجرد أمثلة، وإلا ففي السنة الكثير والكثير مما يؤيد أن قراءة القرآن أو حفظه لا يغني عن صاحبه شيئًا حتى يعمل بما فيه.

٤- ذمّ من يحرصون على قراءة القرآن أو حفظه كلمات وحروفًا ، مع إهماله أخلاقًا وحدودًا.

في الوقت الذي تمتدح فيه تعاليم الإسلام من يقرأون القرآن ويعملون به ويتأدبون بآدابه، تذم آخرين لم يتفاعلوا مع هذا القرآن، واكتفوا بإتقانه حروفًا وألفاظًا.

وفيما يلي بعض الأدلة التي تؤكد على هذا:

١- عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ عام تبوك يخطب الناس، وهو مسندٌ ظهره إلى راحلته، فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلًا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدمه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلًا فاجرًا يقرأ كتاب الله ولا يرعوي إلى شيء منه».[1]

٢- وأخرج الإمام البخاري في صحيحه حديثًا من رواية سمرة بن جندب ﵁ برؤيا رآها النبي ﷺ في منامه، وقد اشتملت هذه الرؤيا على كثير من المشاهد، وتأويل الملكين المرافقين له ﷺ لكل مشهد فيها، ومن

(١) سنن النسائي، حديث رقم (٣١٠٦)، ومسند الإمام أحمد (ج٣ – ص٤١)، وسند الحديث فيه ضعف.

هذا المشاهد أنه ﷺ أتى على رجل مستلقٍ على قفاه، ورجل قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة على رأسه، فيتدهده الحجر «أي يتدحرج» هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصَحَّ رأسه كما كان، ثم يعود إليه فيفعل به مثلما فعل في المرة الأولى.

وحين سأل النبي ﷺ الملكين اللذيْن اصطحباه في رحلته عن تأويل هذا المشهد، قالا له: «أما الرجل الذي رأيت مستلقيًا فرجل آتاه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يفعل بما فيه في النهار، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة».[1]

٣- وفي حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وفيه جاء هذا التوجيه النبوي الكريم «والقرآن حجة لك أو عليك». [2]

والفيصل في هذا هو مدى ما يطبقه صاحب القرآن من آدابه وتعاليمه، وليس مدى ما يحفظه أو يقرأه من آياته.

٤- وكل ما ورد في كتاب الله تعالى من ذمٍّ لمن يعلمون العلم ولا يعملون به يطبق على من يقرأون القرآن أو يحفظونه ولا يعملون به.

---

(١) صحيح البخاري – حديث رقم (٧٠٤٧).

(٢) صحيح مسلم – حديث رقم (٢٢٣).

ومن هذه الآيات -مثلًا- قول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [الجمعة: ٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. وهناك أدلة كثيرة غير ما ذكرنا، ولكننا نكتفي بما ذكرنا، حيث تمت الإشارة إلى كثير منها فيما سبق.

وتأييدًا لما احتوته الآيات والأحاديث في ذمِّ من يحملون القرآن علمًا ويهملونه عملًا، وردت عبارات كثيرة قالها سلف الأمة الصالح للتأكيد على هذا المعنى، والتحذير من هذا المسلك المعوج.

وفيما يلي بيان لبعض ما قالوه في هذا الصدد:

١- يقول أبو سليمان الداراني رحمه الله: «الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان، حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن».[1]

٢- وقال بعض السلف: «إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه الملائكة حتى يفرغ منها». فقيل

(١) إحياء علوم الدين (٣ – ٤٩٨).

له: «وكيف ذلك؟!»، فقال: «إذا حلَّ حلالها وحرَّم حرامها صلت عليه وإلا تلعنه». [1]

٣- وقال بعض العلماء: «إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو يعلم، يقول: «ألا لعنة الله على الظالمين» وهو ظالم نفسه، ويقرأ: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١]، وهو منهم». [2]

٤- وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: «كم من حامل للقرآن والقرآن يلعنه من جوفه، وإذا عصى حامل القرآن ناداه القرآن: «والله ما لهذا حُمِلتُ، ألا تستحي من ربك؟!». [3]

وكلمات السلف الصالح في هذا الموضوع أكثر بكثير، وفيما ذكرت كفاية.

ومن كلمات المعاصرين، يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله: إن الذي لا يكابد منزلة الإخلاص لا يمك أن بعتبر حافظًا لسورة الإخلاص، وإن الذين

(١) إحياء علوم الدين (٣ – ٤٩٨).

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) بداية المنيب إلى القريب المجيب (ص٩٩) – الشيخ عبد السلام محمد أبو الفضل – طبعة ١٩٨٩م – مطبعة الوفاء بالمنصورة.

لا يذوقون طعم الأمان عند الدخول في حمى المعوذتين لا يكون قد اكتسب سورتي الفلق والناس، ثم إن الذي لا تلتهب مواجيده بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمل، كما أن الذي لا تحترق نفسه بجمر الدعوة والنذارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من المتحققين بسورة المدثر».

ثم يضيف قائلًا: «إنما الحافظ للشيء هو الحافظ لأمانته، المتحقق بحكمته، العامل بمقتضاه، المكابد لما تلقى عنه من حقوق الله». [1]

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: «إن هذا القرآن لا يعطي القارئ إذا كان قاعدًا عن العمل به والحركة به والجهاد به، إنه لا يفتح كنوزه إلا لمن يتحرك به، ولا ينشر ظلاله إلا على من يقبل عليه». [2]

لقد وصف الله تعالى كتابه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [فصلت: ٤١]

وقد ذكرت من قبل أن وصف القرآن بأنه عزيز يتضمن أنه من أقبل، وأخلص في الاستفادة منه، وجاهد نفسه لتقويم اعوجاجها بهديه أقبل القرآن عليه، وحلَّت بركاته بساحته، وفاضت أنواره على قلبه وبشرته، فكان نورًا على نور، ومن أعرض عن هديه، وتخلَّى عن أخلاقه وحكمته، فإنه يعيش في ظلمة،

---

(١) هذه رسالات القرآن (ص١٤ – ص١٥).

(٢) مفاتح التعامل مع القرآن (ص١٤٧).

ويمشي في ضلالة، وإن كان أحفظ الناس لآياته، وأقدرهم على إقامة ألفاظه وقراءته.

٥- كلمات السلف الصالح فيمن يوصفون بأنهم أهل القرآن.

أن يمتنَّ الله تعالى على أحد بحفظ آياته فهذا فضل يُذْكرُ لله تعالى فيُشْكَر، ولكن الحفظ وحده لا يكفي لنيل شرف حمل هذا القرآن، بل لا بد من الارتقاء إلى آداب هذا القرآن وتوجيهاته.

وقد تعددت أقوال السلف الصالح في الدلالة على هذا المعنى كثيرًا، وإليكم بعض ما قالوه: يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ: «ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده». [(١)]

وقال الشيخ إبراهيم الدسوقي ﷺ: «يا حافظ القرآن لا تفرح بحفظه حتى يشهد لك كل حرف فيه». [(٢)]

ويقول الشيخ المعصراوي -حفظه الله-: «لا تخبر الناس كم تقرأ من القرآن، ودعهم يرون فيك القرآن، فليس العبرة أين وصلت في قراءة القرآن، إنما العبرة أين وصل القرآن بك».

(١) التذكار في أفضل الأذكار (ص٦٨) - الإمام القرطبي.

(٢) بداية المنيب إلى القريب المجيب (ص٩٩).

وقيل أيضًا: «ليس مطلوبًا أن يكون في جيبك مصحف، بل العبرة أن يكون في أخلاقك آية».

ويقول الدكتور فريد الأنصاري ﷺ: «إن الحامل لجمرة واحدة من جمر آية واحدة، يكتوي بلهيبها، ويستهدي بنورها؛ لأنفع لنفسه وللناس -بإذن الله- من مئات الحفاظ للقرآن كاملًا، الذين استظهروه من غير شعور منهم بحرارته، ولا معاناة للهيبه، ولا مشاهدة لجماله وجلاله».[1]

وفي ضوء هذه المعاني يركز السلف الصالح على أن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ليس حفَّاظ القرآن فحسب، بل إن من اكتفى بحفظ القرآن دون العمل به يجرِّدونه من هذا الشرف، ويعتبرونه أساء إلى القرآن وأهله.

وفي هذا أورد الإمام ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» عن بعض السلف قوله: «نزل القرآن ليُعْمَلَ به، فاتخذوا من تلاوته عملًا، ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم».[2]

(١) هذه رسالات القرآن (ص٢٥).

(٢) زاد المعاد (ج١ – ص٣٣٨) – طبعة سابعة سنة ١٩٨٥م – مؤسسة الرسالة.

ويقول الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: «لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد -والله- أسقطه كله، ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني «لأقرأ السورة في نَفَسٍ». والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة. متى كانت القراءة مثل هذا؟! لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء». [1]

ويطول الكلام ويطول حول حق القرآن علينا، من الارتباط به، والانتفاع بتوجيهاته حتى نستحق شرف الانتساب إلى الله تعالى، ونصير من أهل الله وخاصته.

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص٢٧٤).

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المباركة التي عشتها مع القرآن الكريم، أؤكد على معنىً ذكره سلفنا الصالح -رضوان الله تعالى عليهم- وهو أن القرآن يغني عما سواه، ولا يغني سواه عنه، وأنه ليس دون القرآن غنى، ولا بعده فاقة، وأن الانتفاع بهذا القرآن الكريم لا يتوقف على مجرد تلاوته أو حفظه؛ ولكن في اتخاذه منهجًا للحياة، ومصدرًا للهداية، ودستورًا للأخلاق، والسعي إلى إقامة حدوده جنبًا إلى جنب مع إقامة حروفه وتجويد كلماته، دون الاهتمام بجانب منها على حساب الآخر.

لقد سعدت كثيرًا بصحبتي للقرآن الكريم خلال هذه الرحلة، وحاولت جاهدًا أن أنقل هذه المشاعر إلى قرائي الأعزاء، ومن سعدت بلقائهم وإلقاء هذه الدروس عليهم.

وفي ختام هذا العمل؛ أسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به عامَّة المسلمين، وأن يجزي عني آبائي ومشايخي وكل من له حق عليَّ خير ما يجزي به عباده الصالحين، وصلاةً وسلامًا على معلم الناس الخير سيدنا محمد ﷺ، وعلى جميع أنبياء الله ورسله، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د/ طلعت محمد عفيفي سالم

فهرس

الموضوع | الصفحة